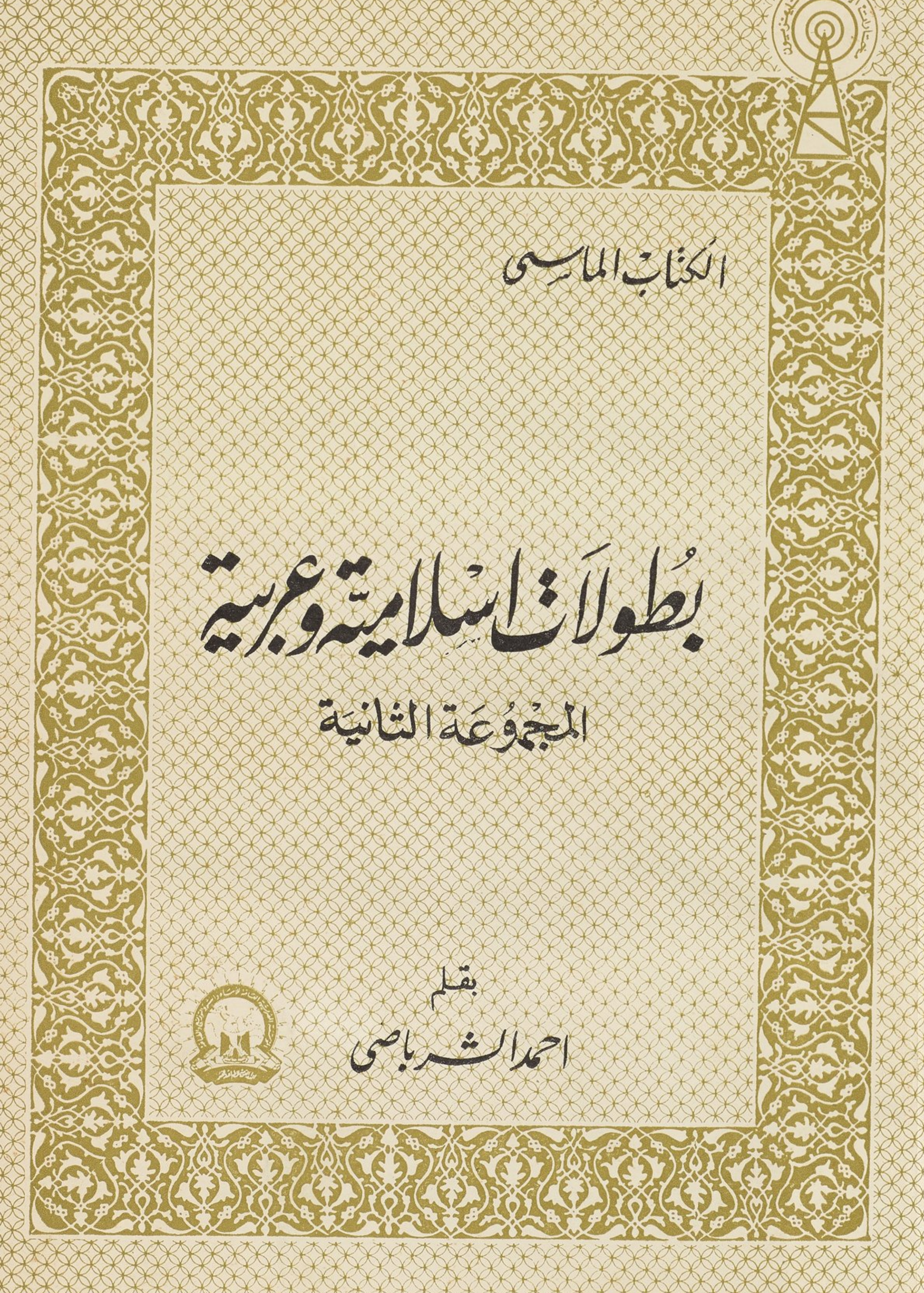


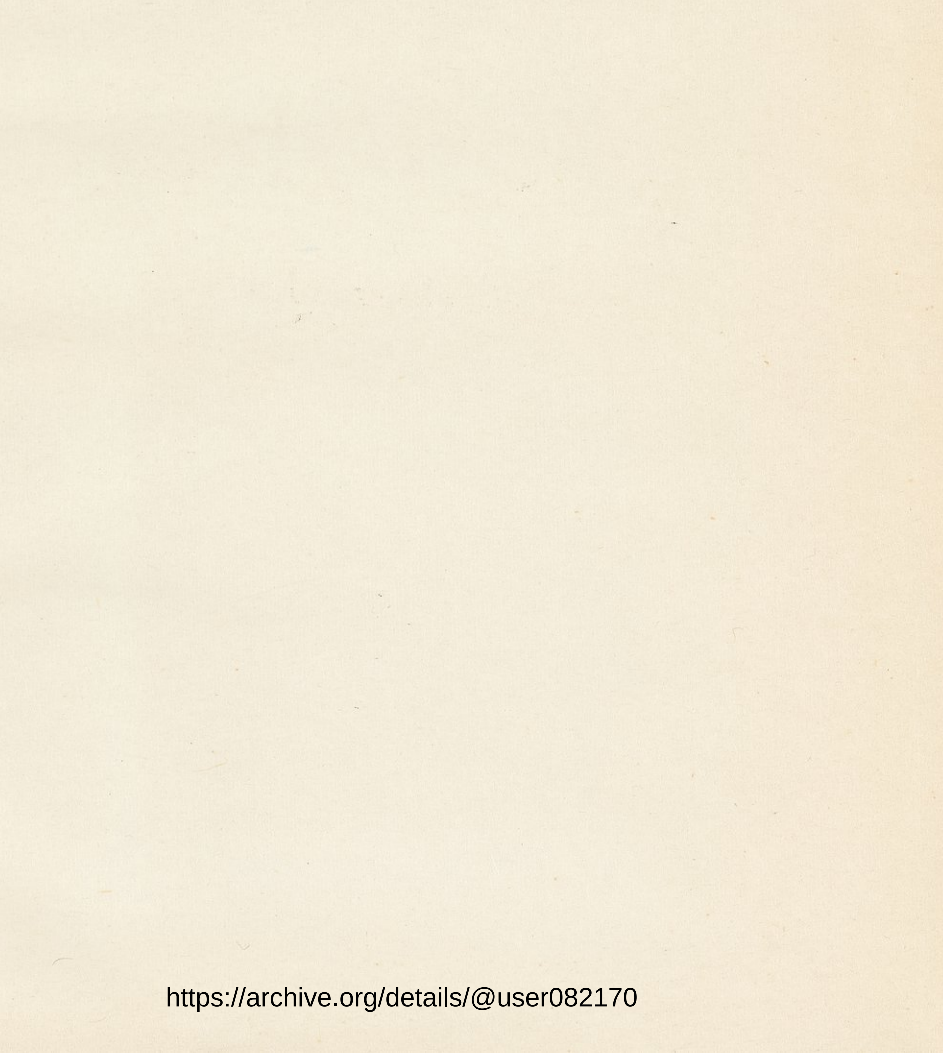
الكتاب الماسي

بُطولات إسلامية وعربية

المجموعة الثانية

بقلم

احمد الشرباصي



al-Sharabāṣī, Aḥmad

الكتاب الماسى

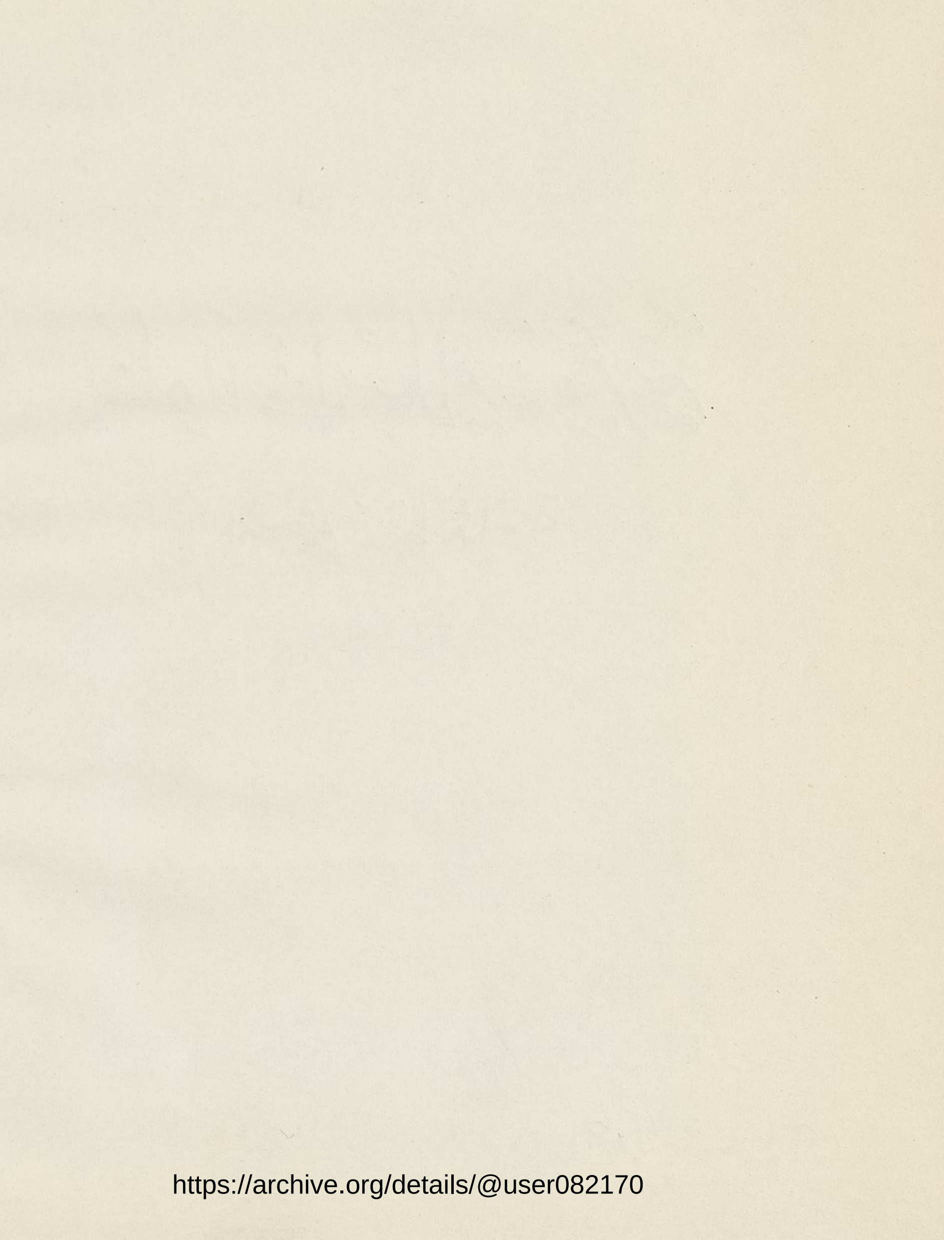
Buṭūlāt

بطولات اسلامية وعربية

المجموعة الثانية

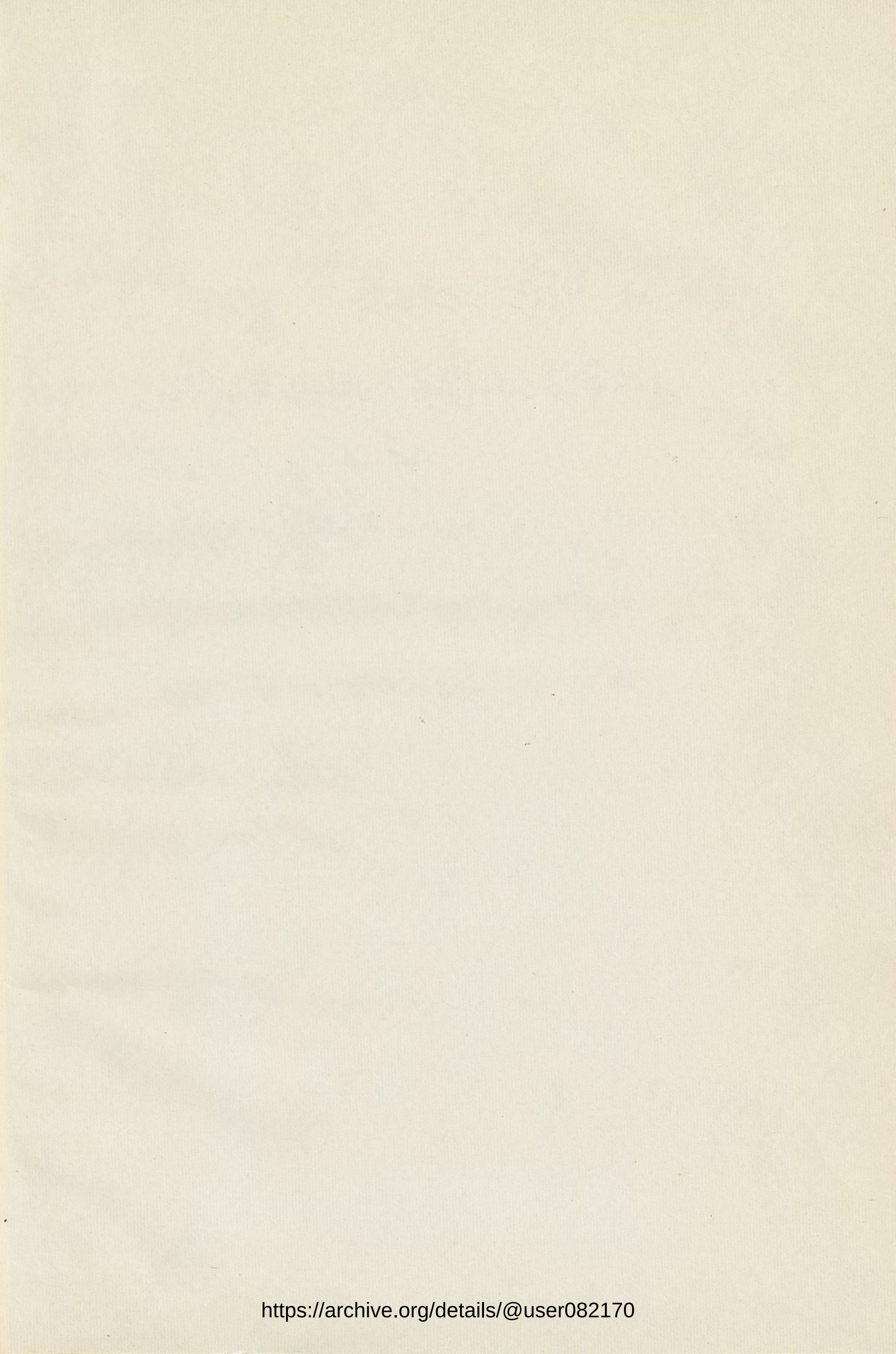
بقلم

احمد الشرباصى



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تبارك وتعالى ، ونصلى ونسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وآله وصحبه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، ونستفتح بالذى هو خير : « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .



قبس من كتاب الله

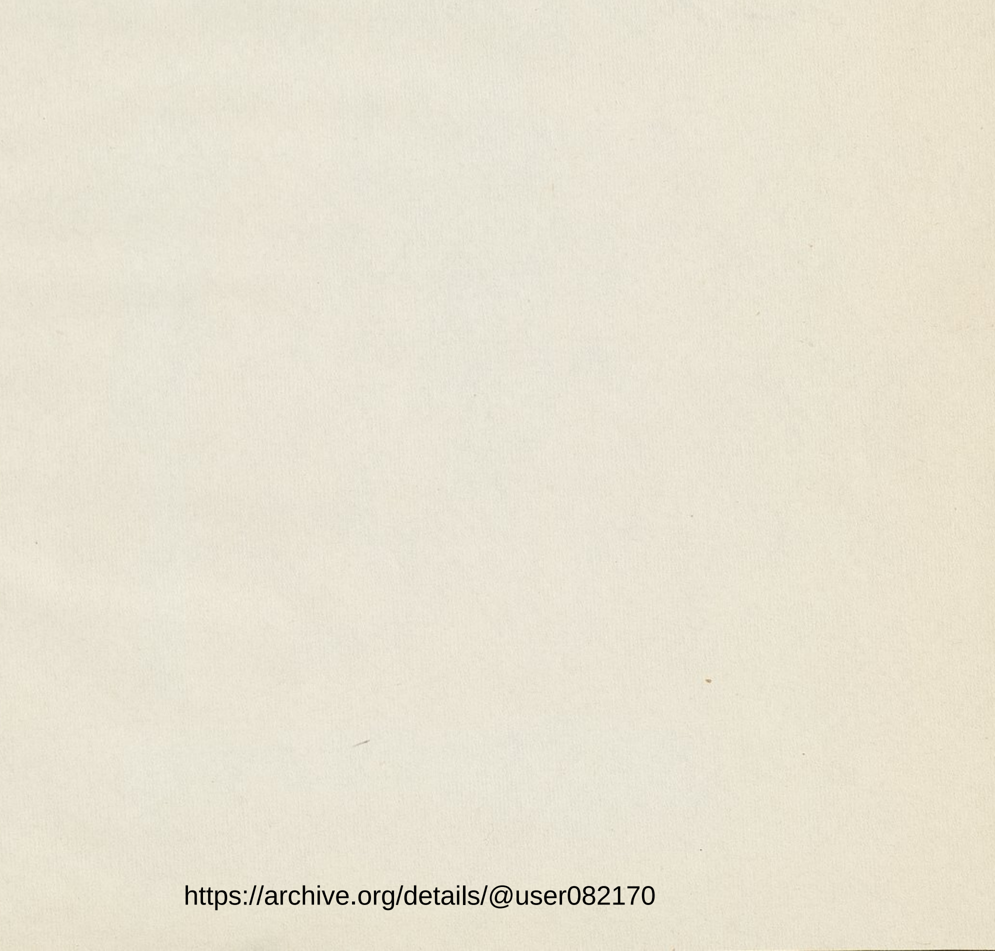
« هٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ، وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » .

(سورة آل عمران : ١٣٨ — ١٤٣)

شعار

« ما أجمل أن نعيش فى هذه الحياة بهمم الأبطال ، وعقول الرجال ، وقلوب الأطفال ؛ فهمة البطل مجد ، وعقل الرجل كنز ، وقلب الطفل نور » .

أحمد الشرباصى



تصدير

منذ قرابة عام قدمت إلى جمهرة القارئين المجموعة الأولى من هذه البطولات الإسلامية والعربية ، وقلت يومئذ فى الخاتمة إن هذه المجموعة تستطيع بدوافعها وحوافزها أن تثير الهمم وتقوّى العزائم ، ولم أرد بهذا القول أن أنسب جهداً أو أكسب حمداً للقلم الذى صاغها وصوَّرها ، فغاية الشرف والسعادة عند هذا القلم أن يوفقه ولى التوفيق سبحانه وتعالى لشرف الخدمة لبلاده دائماً .

وإنما أردت أن هذه الصور بعظمة أصحابها الأبطال الذين خلدوا فى التاريخ ، والذين فرضوا أسماءهم على سجل الزمن بأعمالهم ومكارمهم ، وحميد صفاتهم التى تفيض بها أخبارهم ، والتى تنبثق من سيرهم ومواقفهم ؛ تستطيع أن تدفع إلى الخير ، وأن تحرض على البر ، وأن تزين للناشئة ولأبناء الجيل أن يتشبهوا بآبائهم وأسلافهم ، وأن ينهجوا نهج الذين سبقوهم فى الزمن من جهة ، وسبقوهم إلى المكارم من جهة أخرى .

ولاشك أن عين كل غيور من المصلحين تتطلع إلى أناس عصاميين ، لا إلى أناس عظاميين ؛ إلى أناس يقولون كان لنا آباء وأجداد ، وفى الوقت نفسه يقولون : وهانحن أولاء بأعمالنا وجهودنا نسير على طريق هؤلاء الآباء ، وننسج على منوالهم ، ولا نكتفى بالتفاخر أو كلمات التكاثر ، لأن من اقتصر على ترديد سير آبائه ، كان كمن يفخر بعظام ضمتها القبور :

لسنا وإن أحسابُنا كرمت يوماً على الآباء نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ، ونفعل مثلما فعلوا

* * *

وما كادت المجموعة الأولى تسعى إلى الناس حتى تلقفتها أيد حريصة على أن تتعرف تاريخها ، وأن تتملى من سير أبطالها ، وأن تربط بين حاضرها

وماضيها ، وأن تتخذ من حوافز ذلك الماضى وجهود هذا الحاضر أقوى عدة لمستقبل مزهر يكون جديراً بأمة نهضت ووثبت ، وأدركت موعدها مع القدر ، وعادت تبنى مجتمعها الرشيد السعيد من جديد ، على دعائم من عقيدتها وإيمانها وقوميتها ووطنيتها وإنسانيتها ونزعتها المفطورة على الخير والعدل .

وأحسست أن هذه الأيدى الغفيرة التى استوعبت ما تلقته ترنو إلى مزيد من الحديث عن البطولات والأبطال .

ولما كنت قد وعدت فى نهاية المجموعة الأولى بأن أعرض أختاً لها أو أخوات ، ما دام الله عزوجل — وهو أكرم مستعان — ييسر الأسباب ويمهد الطرق ، فإنى أحس بفيض من الغبطة حين أقدم هذه المجموعة الثانية ، آملا ألا تكون نهاية للحديث عن البطولة فى معانيها وفى أهليها ، بل أرجو ان تكون مرحلة جديدة على طريق ممتد موصول .

* * *

إن نهم البطن يكون عيبا فى الإنسان ، لأنه يدل على شره وبطنة ، ولكن نهم العقل فى تطلب المعرفة ، ونهم الروح فى تطلب القيم المعنوية والمثل العليا ، ونهم القلب فى تطلب ما يعمره وما يسامره من مشاعر الحق والعدل والخير والجمال ، كل هذه الألوان الرفيعة من النهم العقلى والروحى ، أمور محبوبة محمودة ، تزين صاحبها وترفع من قدره بين الأخيار .

إن فى هذه الأمة الساعية نحو المجد ، الجديرة بالتقدير والحمد ، شبابا لا يقنعون بالقليل من زاد القلب والعقل والروح ، ولا يكادون يرتوون مهما نهلوا من ينابيع القيم والمثل ، وإن فى أعناقنا أمانة يجب أن نؤديها إليهم ، وإن علينا تبعة جليلة نحوهم ، هى أن نظل على تفجير هذه الينابيع الكريمة القويمة أمامهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، حتى يظلوا يرتوون ويتحصنون ، ويعملون ويحسنون فيما يعملون ، وعلى الله قصد السبيل ؟

القاهرة فى الأول من نوفمبر ١٩٦٢ .

أحمد الشرباصى

الرائد العام لجمعيات الشبان المسلمين

ألوان من البطولة

البطل فى اللغة العربية هو الشجاع الذى لا يكترث بجراحه ، أو الذى يتعرض للموت ويسفك دماء أعدائه ، ولقد تعارف الكثير من الناس على حصر البطولة فى تلك الشجاعة الحسية الجسدية القائمة على صلابة البدن ، وشدة العضلات ، وجرأة الإقدام فى ميادين القتال والنضال .

ونحن لا ننكر مالقوة البدن من مكانة ومنزلة ، بل ونتذكر أن الإسلام قد نظر إلى جسم الإنسان على أنه بناء من يد الرحمن يجب أن يحفظ ويُصان ، ونتذكر أن الله قد اختار أحدَ أنبيائه فى الزمن الخالى ، وبَسَط له فى جسمه ، كما بسط له فى عمله . وجعل ذلك ميزةً له وسبباً ، لاصطفائه على غيره .

فيقول القرآن المجيد :

« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً ، قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ، قَالَ : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

نحن لا ننكر هذه المنزلة للبطولة الجسدية ، ولكنه يجب علينا أن نتذكر أن هناك ألواناً أخرى من البطولات قد تفوق بطولة الجسم ، وتعلو عليها أضعافا مضاعفة .

فالعالم الذى يَقْصر نفسه على البحث حتى يفيد المجتمع فى كشف جديد ، أو اختراع طريف ، أو تقعيدِ قاعدةٍ علمية جديدة ، لا شك أنه يحقق لنا لونا من ألوان البطولة المجيدة العظيمة الخالدة ، وهى بطولة العلم .

ورجل الدين الصحيح الذى ينهض فى ظلمات الزيغ والضلال ، فيقف فى وجه الباطل وقفةَ الطود الأشم ، لا يخاف ولا يهاب ، ولا يخشى فى الله لومة لائم ، بل يجاهد المنكرات ، ويناضل السيئات ، ويفضح المتجرين باسم الدين ، ويصدع بكلمة الحق ولو أغضبت الخاصة والجماهير ، ويتعرض فى سبيل ذلك للطعن والسب والعنت والإرهاق والتعذيب .

هذا الرجل الداعية المصابر يحقق لنا لونا آخر من ألوان البطولة الماجدة ، هى بطولة الدعوة ، والثبات على الحق ، ومناهضة الباطل فى كل مكان .

والوطنى الغيور الذى يرى الوطنَ مهضومَ الحقوق ، ويرى عصبةَ البغى أو الشر تتآمر عليه ، وتزهق روحه ، أو يرى القائم مقامَ الإمارة والسلطان يبغى ويطغى ، ولا يرعى إِلاًّ ولا ذمة ، ولا يعرف عدلا ولا قسطاساً ، فيهب ذلك الوطنى الصادق فى وجهه ليصارحه ببغيه ، وليصده عن عدوانه ، وليذكره بحساب الشعب والتاريخ والخالق .

ذلك الوطنى الغيور يحقِّق لنا لونا من ألوان البطولة ، هى البطولة الوطنية ، ولذلك جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الجهاد كلمةُ حقٍ عند سلطان جائر » .

والرجل الذى يفرغ نفسه للخدمة العامة والإصلاح الاجتماعى ، فيكون على الدوام مستعداً لبذل المجهود ، وإغاثة الملهوف ، ونجدة المأزوم ، والعطف على المحروم ، وإرشاد الضال ، وتطبيب المرضى ، ومواساة المكلومين ؛ ويبذل فى ذلك طاقَته ووُسعه ، يحقق لنا لونا من ألوان البطولة الجليلة ، وهى بطولة النفع العام للناس .

وصدق محمد العظيم يوم قال : « الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » .

وحين قال : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » .

وحين قال : « خيركم من يرجى خيره ، ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره » .

وحين قال : « خير الناس أنفعهم للناس » .

والرجل الذى يلقى الإساءةَ بالإحسان ، والقطيعة بالود ، والسيئة بالحسنة ، ويكون مثلا لجمال الطبع ، وكمال الخلق ، وجلال النفس ، يحقق لنا مثلا من أمثلة البطولة ، ألا وهى بطولة مكارم الأخلاق .

وقد أشار القرآن إلى هذا اللون من البطولة الصحيحة حين قال :

« وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ، ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

كما أشار إليه معلم الإنسانية ، وطبيب البشرية ، محمد صلوات الله وسلامه عليه حين قال فيما يسند إليه :

« أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها : أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الفقر والغنى ، وأن أعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون نطقى ذكرا ، وصمتى فكراً ، ونظرى عبرا » .

وها هو ذا الشاعر النبيل يعرض هذه البطولة الأخلاقية فى أبيات جميلة له فيقول :

وإن الذى بينى وبين بنى أبى ... وبين بنى عمى لمختلفٌ جدًا
أراهم إلى نصرى بطاءً ، وإن همُ ... دعونى إلى نصر أتيتهم شدًا
وإن أكلوا لحمى وفرتُ لحومهم ... وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وإن زجروا طيراً بنحس تمرُّ بى ... زجرت لهم طيراً تمرُّ بهم سعدا
وإن ضيَّعوا غيبى حفظت غيوبهم ... وإن هم هَوُوا غيِّى هَويتُ لهم رشدا

ولا أحمل الحقدَ الدفين عليهم ... فليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جُل مالى إن تتابع لى غنى ... وإن قلّ مالى لم أكلفهم رفدا

* * *

والرجل النقى الأبى الزكى الطهور ، الذى لا يرضى الدنيةَ مهما كانت ضئيلة ، ولا يقترف العيبَ مهما كان قليلا ، ولا يأتى ما يُستحى منه ، ولو كان صغيرا ، ويكون له من نفسه على حركاته وكلماته رقيب عتيد ، ومحاسب عنيد . . يحقق لنا لونا من ألوان البطولة العالية ، وهى بطولة المروءة ؛ ولقد نسبوا إلى الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه قال :

« والله لو علمت أن شرب الماء البارد يثلم مروءتى ما شربته طولَ حياتى » .

والرجل الذى لا يكون كثير المال ، ولا عريض الجاه ، ولا واسع السلطان ، ومع ذلك هو يعز فى نفسه ، فلا يقبل ضيماً ، ولا يسكت على ذل ، ولا يصبر على هوان ، يحقق لنا مثلا من أمثلة البطولة ، وهى بطولة الشمم والإباء .

وقديما قال عمر بن الخطاب : « يعجبنى من الرجل إذا سِيمَ خُطةَ خسفٍ أن يقول (لا) بملء فيه » .

وقال عمر لعمرو بن العاص يوم ضرب ابنُه أحدَ العامة : « متى استعبدتم الناسَ وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

ولقد كان الشافعى ينشد :

أمطرى لؤلؤا سماء سرنديـ ... ـب ، وفيضى جبال تكرور تبرا
أنا إن عشتُ لست أعدم قوتاً ... وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ، ونفسى ... نفسُ حرٍ ترى المذلة كفرا

* * *

وهكذا نجد أن ميادينَ البطولة كثيرة ، وأن ألوانها متعددة ، وأن بطولة الجسم قد تكون لونا من ألوانها ، ولكنها ليست كلّ لون . . . فانظر أين تكون أنت من ميدان البطولة ، وأرنا ما اللون الذى تختاره لتكون بطلا فيه ؟ والله ولى العاملين ؟

بطولة إباء

نعرف فى تاريخ المسلمين العالم القاضى الفاضل أبا الحسن على بن عبد العزيز ابن الحسن بن على بن إسماعيل الجرجانى قاضى «الرَّىّ» فى أيام الصاحب ابن عباد. وقد كان الجرجانى عالما أديبا، أبىّ النفس، كامل الخلق؛ رحل فى صباه إلى كثير من البلاد والأمصار، وخالط الكثيرَ من الناس، وجمع أطراف العلوم والآداب، وبرع فى الشعر والرسائل والخط والعلم.

ومن كتبه: كتاب تفسير القرآن المجيد، وكتاب تهذيب التاريخ، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، وقال عنه الثعالبى إنه يجمع خط ابن مقلة، إلى نثر الجاحظ، ونظم البحترى، وينظم عقد الإحسان والإتقان فى كل مايتعاطاه؛ ومن شعره:

ما تطعمت لذة العيش حتى صرتُ للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء أعزّ عندى من العلم، فَلِم أبتغى سواه أنيسا؟
إنما الذل فى مخالطة النـاس، فدعهم، وعش عزيزاً رئيسا!

وذكر عنه الحاكم فى تاريخ نيسابور، أنه ورد نيسابور سنة سبع وثلاثين وثلثمائة مع أخيه أبى بكر، وأخوه إذ ذاك فقيه مناظر، والجرجانى قد ناهز الحلم، فسمعا معا الحديث الكبير، ولم يزل علىّ يتقدم إلى أن ذُكِرَ فى الدنيا.

وقد مات بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة، وحُمل تابوته إلى جرجان فدفن بها؛ وصلى عليه القاضى أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد.

***

وللجرجانى قصيدة تدل على علو الهمة، وإباء الضيم، والترفع على الصغائر؛ وهى دستور يجب أن يجعله كل عالم أبىٍّ نصب عينيه، يقول فيها:

يقولون لى: فيك انقباض ؛ وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهمُ هان عندهم ومن أكرمته عزةُ النفس أكرما
وما كل برق لاح لى يستفزنى ولا كلُّ من لاقيت أرضاه منعما
وإنى إذا ما فاتنى الأمر لم أبت أقلب كفى إثره متندما
ولم أقض: حقّ العلم إن كان كلما بدا طمعٌ صيرته لى سُلما
إذا قيل هذا منهل ؛ قلت: قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنهنهها عن بعض مالا يشينها مخافة أقوال العِدا: فيمَ ؟ أو لما ؟
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى لأخدم من لاقيت لكن لأُخْدَما
أأشقى به غرساً ، وأجنيه ذلة ؟ إذَنْ فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظماً
ولكن أهانوه فهان ، ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

* * *

وقد وجدتُ عالما جليلا آخر من علماء الأمة السابقين قال فى مثل ما قال فيه الجرجانى ، وذلك هو الإمام العظيم شيخ الإسلام تقى الدين بن دقيق العيد الذى قيل فيه : إنه العالم المجدد على رأس المائة السابعة ، وقد نشأ تقى الدين فى بلدة « قوص » وتفقه بها ، واشتهر وذاع صيته ، ورحل إلى القاهرة ، واستقر فيها . وزاد علوا ومجدا ، حتى كان السلطان ينزل له عن عرشه ويقبل يده . وقد تولى القضاء بمصر ؛ وترجم له الإمام السبكى فى « طبقات الشافعية الكبرى » ترجمة وافية فارجع إليها ، كما ترجم له ابن حجر فى كتابه « الدرر الكامنة » ، وكان برغم إمامته فى الدين والقضاء : شاعراً ، ومن شعره قوله :

أهل المناصب فى الدنيا ورفعتها أهل الفضائل مرذولون بينهم
قد أنزلونا لأنا غير جنسهم منازل الوحش فى الإهمال عندهم
فما لهم فى توقى ضُرّنا نظر ولا لهم فى ترقى قدرنا همُ

فليتنا لو قدرنا أن نعرِّفهم مقدارَهم عندنا ، أو لوْ دروْه همُ
لهم مريحان : من جهل وفرط غنى وعندنا المتعبان : العلم والعدم[1] !

وقد عارضه أبو الفتح الثقفى بقوله :

أين المراتب فى الدنيا ورفعتها من الذى حاز علما ليس عندهم ؟
لاشك ، أن لنا قدرا رأوه ، وما لدرهم عندنا قدرٌ ، ولا لهم
هم الوحوش ، ونحن الإنس ، حكمتنا تقودنا حيث ما شئناً ، وهم نعمُ
وليس شيء سوى الإهمال يقطعنا عنهم ، فإنهمُ وجدانهم عدمُ
لنا المريحان : من علم ومن عدم وفيهمُ المتعبان : الجهل والحشم

والقصيدة التى قالها ابن دقيق العيد فى إباء العلماء ، وتقرب من قصيدة الجرجانى ، هى :

يقولون لى : هلا نهضت إلى العلا فما لذَّ عيشُ الصابر المتقنع
وهلا شددت العيس حتى تحلها بمصر إلى ظل الجناب المرفع
ففيها مر الأعيان منْ فيضُ كفه إذا شاء روى سيله كلَّ بلقع
وفيها قضاة ليس يخفى علمهمُ تعيُّن كون العلم غير مضيع
وفيها شيوخ الدين والفضل والألى يشير إليهم بالعلا كلُّ أصبع
وفيها ، وفيها ، والمهانة ذلة فقم واسع واقصد باب رزقك واقرع
فقلت : نعم أسعى إذا شئت أن أرى ذليلا مهانا مستخفا بموضعى
وأسعى إذا ما لذ لى طولُ موقفى على بابِ محجوب اللقاء ممنع
وأسعى إذا كان النفاق طريقتى أروح وأغدو فى ثياب التصنع
وأسعى إذا لم يبق فىَّ بقية أراعى بها حق التقى والتورع
فكم بين أرباب الصدور مجالس تُشبُّ بها نار الغضا بين أضلعى
وكم بين أرباب العلوم واهلها إذا بحثوا فى المشكلات بمجمع
مناظرة تحمى النفوس فتلهى وقد شرعوا فيها إلى شر مشرع

(١) العدم هنا معنى الفقر وقلة المال .

من السفه المزرى بمنصب أهله   أو الصمت عن حق هناك مضيع
فإما توقى مسلك الدين والتقى   وإما تلقى غصة المتجرع !

***

رحم الله أبا الحسن الجرجانى ، ورحم الله ابن دقيق العيد ، ورحم الله تاج الدين السبكى حين يقول : « والكلام فى العلماء ، وما ينبغى لهم يطول ، ولكننا ننبه على مهمات ، فمن هؤلاء من يطلب العلو فى الدنيا ، والتردد إلى أبواب السلاطين والأمراء كما ذكرناه ، وحب المناصب والجاه ، فيؤدى ذلك إلى أن يظلم قلبه بهذه الأكدار ، ويزول صفاؤه بهذه الأمور التى تظلم القلوب ، وتبعد عن علام الغيوب ، وإلى أنه يشتغل بهم وبها عن الازدياد من العلم ؛ فكم رأينا فقيها تردد إلى أبواب الملوك فذهب فقهه ، ونسى ما كان يعلمه ؛ وإلى فساد عقيدة الأمراء فى العلماء ؛ فإنهم يستحقرون المتردد إليهم ؛ ولا يزالون يعظمون الفقيه ؛ حتى يسألهم فى حوائجه ؛ ويئول ذلك إلى أنهم يظنون فى أهل العلم السوء ؛ ولا يطيعونهم فيما يفتون به ؛ وينتقصون العلم وأهله ، وذلك فساد عظيم ؛ وفيه هلاك العالم » .

اللهم ارزقنا الصواب والرشاد فى العمل ، ووفقنا لما تحب وترضى ؟

بطولة ثائر

الرجل العظيم يبهر الناس فى حياته ، كما يبهرهم بعد مماته ، أو قل : إنه يفيدهم فى الحالتين ، فهو يبهرهم ويفيدهم فى حياته بعلمه وسعيه ونضاله ، كما يبهرهم ويفيدهم بعد مماته بذكراه وسيرته وموحيات تاريخه ، وبعض هؤلاء الرجال العظماء الأبطال — وبخاصة فى ميادين العقائد والمبادىء الروحية — لا يمل الناس من ترديد ذكراهم ، أو الحديث عنهم ، أو النظر فى مراحل حياتهم ، إذ أن حياة هؤلاء ليست تاريخا يسرد ، أو موضوعا يشرح ، وإنما هى موحيات وحوافز ، ومثيرات ودوافع ، وعظات وعبر ، فالناس كلما رددوها اتعظوا منها ، واعتبروا بها .

« وجمال الدين الأفغانى » أحد هؤلاء القلائل ، فنحن نكرر ذكره والحديث عنه ، فيزداد تاريخه تألقا وتأثيراً ، ومن هنا لانرى بأساً فى أن يتكرر الحديث عن هذا أو ذاك من عظماء الإسلام أو أبطال العرب ، ما دام الحديث يأتى على وجهه المنشود ، وفى مناسبته الملائمة .

* * *

وأوجز وصف يقال عن جمال الدين : إنه « ثائر من أجل المسلمين » ، فهو سيد من سادات الإسلام ، شب فرأى ما أصاب المسلمين من غفلة وهوان ، فقام يثور من أجلهم ، ويعمل لإيقاظهم ، ويضحى بنفسه فى سبيلهم .

ولا عجب فهو ربيب الإسلام ، وسليل « الحسين » سيد الشهداء ، وسيد شباب أهل الجنة ، وقد بذل « الحسين » نفسه من قبل فى سبيل الحق الذى آمن به ، وفى سبيل المسلمين الذين أيقن أنهم قد أصابهم من الحيف والعسف ما يستوجب خروجه لموطن البلاء والجهاد ، ولو أدى ذلك إلى الاستشهاد .

هو « ثائر من أجل المسلمين » .. لا من أجل شىء آخر .. لم يثر من أجل

المال والثروة ، فقد عاش جمال الدين فقيرا معدما ، قليل المال محتاجا إليه عافاً نفسه عنه .

ولقد تقدم إليه بعض الناس بمعونة مالية فى لحظة من لحظات الضيق والشدة ، وكأنه يريد أن يمن بها على جمال الدين ، فرفضها جمال الدين ، وقال قولته الماجدة الخالدة : « احفظوا المال ، فأنتم إليه أحوج ، وأما الليث[1] فإنه لا يعدم فريسته أينما ذهب » ! .

* * *

ولم يثر جمال الدين من أجل الحصول على البيت الهادىء ، أو السكن الدائم ، فقد عاش مسافراً متنقلا ، مهاجراً موصول الهجرة ، مفزَّع النوم ، مشرَّد الأحلام ، فهو يواصل التنقل بين أفغانستان ، وإيران ، والحجاز ، ومصر ، والهند ، وروسيا ، وفرنسة ، وإنجلترة ، وغيرها من بلاد الدنيا .

كأنما هو فى حِلٍّ ومرتحلٍ موكَّل بفضاء الأرض يذرعه

ولم يثر جمال من أجل الأولاد — وهم زينة الحياة وبهجة الدنيا — فقد عاش بلا أولاد يشغلونه أو يغرونه بأن يسعى لهم ، أو يجمع من أجلهم ، أو يَقصر جانبا أو جوانب من همته عليهم .

ولم يثر من أجل « الزوجة » ، إذ لم يتزوج جمال الدين ، ووطىء الدوافع الجنسية بقدميه ، ولقد حاول بعضُ من خافوه أن يشغلوه بالمرأة ، أو يغروه عن طريقها ، فلم يفلحوا ، إذ أبى جمال الدين واستعصم ! .

ولم يثر من أجل المنصب والوظيفة والجاه فى هذه الحياة ، فلقد عاش مستخفا بهذه المناصب والوظائف ، ولقد تولى فى بعض الأحيان منصبا شبيها بمنصب رئيس الوزراء فلم يحفل له ولم يغتر به ، ولم يتردد فى تركه حين رآه كالقيد يحول بينه وبين الانطلاق مع مبادئه وآرائه ودعواته .

ولقد كان جمال الدين يناصب بعضَ الملوك والسلاطين العداء ، وكان يحمل

(١) الليث : اسم من أسماء الأسد

عليهم الحملات الشعواء ، وكانوا يخافون هذه الحملات ويهاون صاحبها ، ويودون أن يصطنعوه بما يشاءون من تكريم وتقدير ورفع مكانة ، لقاء أن يكف عنهم .

وكان جمال الدين يستطيع أن يبلغ ما يطمح إليه الرجل الطموح من جاه ورفعةِ شأن ، ولكنه فضل أن يبقى ثائراً من أجل المسلمين ، مجاهدا فى سبيل الإسلام على أن يكون رفيعَ المنصبِ مع هؤلاء !.

***

نعم ثار جمال الدين من أجل المسلمين ، فألف جمعية « أم القرى » فى الحجاز عقب أدائه فريضة الحج واتصاله برجال الإسلام ، ليحقق بها فكرة « الجامعة الإسلامية » فى الوقت الذى كان المسلمون فيه « أيدى سَبا » مشتتين فى كل رجا من أرجاء الأرض .

ثم ألف « جمعية العروة الوثقى » فى باريس ، وأصدر مجلتها مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده ، وذلك لتطبيق أحكام القرآن ، والعمل بشريعة الله فى الفرد والجماعة .

وقد جاء النص على ذلك فى صدر القسم الذى يقسمه كل منتسب إلى هذه الجمعية ، حيث يقول : « أقسم بالله العالم بالجزئى والكلى ، والجلى والخفى ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لأحكمن من كتاب الله فى أعمالى وأخلاقى ، بلا تأويل ولا تضليل ، ولأجيبن داعيه فيما دعا إليه ، ولا أتقاعد عن تلبيته فى أمر ولا نهى ، ولأدعون لنصرته ، ولأقومن بها مادمت حيا ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا » !! .

وثار من أجل المسلمين حين وقف فى وجه الاحتلال الأجنبى لبلاد الإسلام حيثما ذهب ، وحين حرض المسلمين والمنكوبين بالاحتلال على الثورة فى وجوه الباغين الغاشمين .

وها هو ذا يصرخ فى أبناء الهند المصابين بالاحتلال الإنجليزى فيقول :

« لو كنتم يا مئات الملايين من الهنود ذباباً لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ويجعل فى آذان كبيرهم (مستر غلادستون) وَقراً ! . . . ولو كنتم يا مئات الملايين من الهنود ، قد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة ، وخضتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها إلى القاع ، وعدتم إلى هندكم أحرارا » ! ! .

وثار جمال الدين من أجل المسلمين حين حارب الاستبداد الداخلى فى بلاد المسلمين الذى يتمثل فى ظلم الحاكمين للمحكومين وفى بغى المستغلين للكادحين .

وها هو ذا يهتف بالفلاح المصرى قائلا : « أنت أيها الفلاح تشق قلب الأرض لتستنبت ما تمسك به الرمق ، ويقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلوب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » .

* * *

وهكذا ثار جمال الدين الأفغانى من أجل الإسلام ، ومن أجل المسلمين . . ثار من أجلى ، ومن أجلك أنت ، ومن أجل كل مسلم . ثار فى سبيل قرآنى وقرآنك وقرآن كل مسلم .

فلا أقل من أن نذكر بكلمة الخير والإنصاف والتقدير . . . هذا الثائر الذى أتعب نفسه وأنصب حياته فى سبيل أن يعود مجد الإسلام ، وأن تعز دولة القرآن ، وأن ينهض المسلمون فى كل مكان ! .

نعم من حقه أن نذكره ، وأن نقدره ، وأن نشكره ، وأن نستخلص من حياته لأنفسنا عبرا وعظات .

* * *

لقد حق للشاعر الأستاذ محمد بدر الدين أن يصوغ فى بطولة جمال الدين هذه الأبيات يناجيه بها منذ سنوات وسنوات :

يا شريداً والمجد يسعى وراءه ... وفتى يعشق الخلودُ إباءه

يا عَصيا لم يعرف الضيمَ يوماً ... لا ، ولم يرض رأسه بانحناءه

وشهابا يفزع الليـل ، حتى ... بات جيشُ الظلام يخشى لقاءه
ثائراً يلهب الزمان .. ويمضى ... كلما طاف فى مكان أضاءه
روحه ثرّةٌ تفيض طموحا ... لم يكفكف زمانه غلواءه
أىُّ نفس حملتها — يا جمالا — ... تنفث البعثَ حرة وضاءه ؟
لا الأعاصير نهنهتْ من قواها ... لا ، ولا البغى كفَّ عنها بلاءه
إنها منحة السماء إلى الأر ... ض ، يشد الإسلام منها بناءه
كلَّ قرن يبثها الله نورا ... من جلال النبى يهدى سناءه
ياغريب الرُّفات .. من سنن الكو ... ن اغتراب لقيته ، وإساءه
أخرجَ «المصطفى» وحورب فى اللـ ... ـه ، وهذى أنواره لألاءه
ورأينا « الفاروق » يقتله البغـ ... ـى ، وهذا الخلود أمسى رداءه
« وعلىٌّ » يبكونه اليوم .. لكن ... هل أطاعوا لدى اللقاء نداءه ؟
« وحسين » الشهيد .. كم خذلوه ... ثم عادوا يولولون وراءه !
لا يعيب الكمىَّ جندٌ خفاف ... كلما كرَّ ساعدوا أعداءه
فاغترابُ الأحرار فى لجج الشك ... حديث لم نلق بعدُ انتهاءه
والطواغيت كلهم لا يُطيقو ... ن أبيا يرون فيه الكفاءه
إنما عاشق الخلود شهيد ... أبدَ الدهر يمتطى كبرياءه
كبرياء لا يعرف العجبُ فيها ... جنباتٍ ولا تطيق لقاءه
كبرياء الحق تزخر بالنبـ ... ـل ، وتهدى لكل حق سماءه
يا جمالا محمدىَّ السجايا .. ... وإماما أقام فينا لواءه
شرَّدته البلادُ بالأمس ، لكن ... ها هى اليوم تستعيد بلاءه
كل قطر وطئته يدّعى اليـو ... م انتساباً .. وكم أراك عداءه
هذه مصر تحتفى الآن ، هلا ... قارنت حالها بيوم الإساءه !
يوم باتت والرعب يعصف فيها ... كل قيل .. فلم يطاوع حياءه
وطغاة الزمان باتوا حيارى ... من فؤاد لم يستطيعوا شراءه
فلكم حاولوا شراءَك بالما ... ل ، وساقوا لك النساء دناءَه
ثم ضاقوا فأخرجوك وحيدا ... راهبَ الروح ما يبالى فناءه

أنصت الخلد والسفينة تسعى ... بطريد أبى الطغاة بقاءه
إذ تردُّ الأموال والموج داجٍ ... لست تدرى إن سرت ماذا وراءه
وتقول: اذهبوا .. فلست أبالى ... أبدا يقنص الهزبر[1] غداءه
كم زعيما من قبل أو بعد عانى ... من أذاهم، وكم أباحوا دماءه
يقتل الشرق كل هاد، ويبكى ... بعد حين، ولا يمل بكاءه
ويقيم الأحفال تهتف للرا ... حل تنعى كفاحه وإباءه
بعـــد ما مات أبنوه، وكانوا ... وهو حى يصادرون غذاءه
هجروا الضوء بالنهار، وجاءوا ... ليعيدوا لدى الغروب رواءه
يجذبون الشعاع من أفق الغر ... ب عساهم يبدِّلون مســاءه
يا لقومى، وهم حيارى، أفيقوا ... إنه الأمس لا يعير رداءه
سيعود النهار من أفق الشر ... ق فكونوا عماده وبناءه
أم تراكم تنسونه فإذا ما ... غاب جئتم تسابقون وراءه
امنحوا الحىَّ قدره فى وفاءٍ ... فإذا مات لا تبالوا رثاءه
فلسان التاريخ أروعُ راث ... والشعاع القوى يأبى انطفاءه !

رحم الله جمال الدين الأفغانى ثائر الإسلام الذى أيقظ أمة الإسلام بعد جمود وهمود، والذى كان له أكبر الأثر فى جهاد الرواد الذين مهدوا طريق الاصلاح فى مجال الدين والدنيا.

---

(١) الهزبر: اسم من أسماء الأسد

بطولة اهتداء

يقول رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام : « الناس معادن : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » . وكأن هذا الحديث النبوى الكريم يشير من بعد إلى أن الرجل العظيم له مفتاح يحدد اتجاه شخصيته المتميزة ، وقد يدور هذا المفتاح يساراً ، فينحرف بصاحبه وشخصيته ، فيكون حينئذ قوة ملحوظة فى ميدان الاعتساف ، ويظل هكذا حتى تهيىء الأقدار لهذا المفتاح أن يعود فيدور يميناً ، فإذا هو ينقل صاحبه من مجاله المنحرف الأول إلى مجال مناقض له ومضاد ، وإذا هذا الرجل يصبح قوة فى باب الخير لها ميدانها ولها سلطانها .

وإن تحول الإنسان من اتجاه فى حياته إلى اتجاه آخر يحتاج إلى فكر وعزم وقوة ، وإذا كان هذا الاتجاه ماديا عمليا استطاع تحويله كثير من الناس ، ولكن التحول من اتجاه فى الاعتقاد الدينى إلى اتجاه آخر ، يحتاج إلى عنف فى المجهود أو بطولة فى الشخصية .

* * *

ها نحن أولاء نرى عمر بن الخطاب يخرج قبيل إسلامه متوشحا سيفه ، يريد الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن معه ، فيلقاه نعيم بن عبد الله فيسأله عن وجهته ، فيقول له عمر وهو ما زال فى عماية الجاهلية لما يهتد إلى الإسلام بعد :

« أريد محمدا .. هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبَّ آلهتها . . فأقتله » .

فأجابه نعيم : أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم ؟

فغضب عمر وقال : أى أهل بيتى ؟ .

قال نعيم : أختك فاطمة وزوجها سعيد بن زيد فقد والله أسلما وتابعاً محمداً على دينه ، فعليك بهما ! .

فرجع عمر يغلى الدم فى عروقه ، فطرق الباب على أخته فى دارها ، وكان عندها زوجها ، ومعها خباب بن الأرتّ يعلمهما القرآن الكريم من صحيفة ، ولما عرفت فاطمة أن الطارق هو أخوها عمر ، خبأت الصحيفة تحت فخذها ، واختبأ خباب فراراً من بطش عمر به .

ودخل عمر وقد سمع صوت خباب فقال : ما هذه الهينمة التى سمعت ؟ .
أجاب سعيد : ما سمعت شيئاً .
قال : بلى والله ، لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ! .

ودفع الغضب عمر ليبطش بسعيد زوج أخته وابن عمه ، فنهضت فاطمة لترد عن زوجها وعن أخيها فى الإسلام ، فضربها عمر وسال الدم منها . . .

وكأن جريان هذا الدم قد بعث الثورة فى نفس فاطمة ، فقالت لعمر فى عزم وصرامة : نعم قد أسلمنا . وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ! .

ولكن الدم الذى جعل من ضعف فاطمة قوة أحال فى الوقت نفسه قوةَ عمر إلى ضعف ، فإنه لإنسان ، وإن المضروبة أخته وشقيقته ، وإن للون الدم روعته وأخذته ، وإن فى طوايا عمر من خصال الرجولية القوية ماطمرته رمال الجاهلية ، وغطته حميتها مع الأيام ، ولكن المعدن ما زال كريماً على أصله تحت الرغام .

فما كاد عمر يرى الدم ، ويقرع سمعه كلام أخته الصريح الحازم العازم حتى تنبه من غفلته ، واعتدل من جوره ، واهتز كيانه بعد طول جمود ، فرق فى خطابه لأخته ، وسألها أن تطلعه على الصحيفة ، وأحست فاطمة بغريزة المرأة أن أخاها قد أدركته لفحة من ندم ، ونفحة من ارعواء ، ونسمة من يقظة ، فسألته أن يتطهر أولا ، حتى يصلح لتناول قرآن لا يمسه إلا المطهرون ، فاستجاب عمر لذلك : وتناول منها الصحيفة ، وأخذ يقرأ فيها هذه الآيات الكريمات :

« طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » .

وبلغ هذا الكلام الإلهى الحكيم الرائع الأخاذ مواقع التأثير ومواطن القلقلة من نفس عمر وأعماقه ، فإذا لسانه يقول وكأنه قد تبدل إنساناً جديداً آخر : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! .

وسمع خباب العبارة العمرية من وراء ستار ، فأشرق لها الأمل فى نفسه ، ورجا أن يسلم عمر ويهتدى ، فبرز إليه من مختبئه يقول له : « ياعمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته يقول فى دعائه :

« اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين : الحكم بن هشام ، أو عمر بن الخطاب » فالله الله ياعمر ! » .

وكان عمر رجلا ، وكان بطلا ، وكان معدنه أصيلا ، وتربته قوية ، فاستطاع أن يدير مفتاح شخصيته ، وأن يحول طاقاته من مجال الاعتداء إلى مجال الاهتداء ، وأن يتألق فى دنيا الإيمان بعد ما أسرف فى دنيا الكفران ، فسارع بالاستجابة لتحريض خباب له على الخير والاهتداء ، فقال له : دلنى ياخباب على محمد ، حتى آتيه فأسلم فدله على مكانه ! .

وخرج عمر متوشحا سيفه ، وسار حتى طرق باب بيت عند الصفا ، فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومعه نفر من أصحابه ، فذهب أحدهم يستطلع من الطارق ، وعاد إلى الرسول مسرعاً خائفا يقول : إنه عمر متوشحا سيفه .

فقال سيد الشهداء ، أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب : تأذن له يارسول الله : فإن كان يريد خيرا بذلنا له خيرا ، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه .

وأذن الرسول لعمر ففتحوا له الباب ، ونهض إليه الرسول أول من نهض

فتلقاه ، وأخذ النبي بمجمع رداء عمر ، وهزه هزة عنيفة ، كأنما كانت تغربل ما بقى فى نفس عمر من رواسب الجاهلية ، وفضلات الماضى المظلم . وبقايا الكفر والضلال ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر : ما جاء بك يا بن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ! .

وزلزلت نفس عمر زلزالها بسبب هذه الهزة ، وبأثر هذه القولة ، فإذا صوته ينبعث بين الجمع يقول : يا رسول الله ، إنما جئت لأومن بالله ورسوله ، وبما جاءك من عند الله ! .

وهكذا أسلم عمر ، وسرت الفرحة بين الجميع بإسلامه ، وعلا صوت التكبير يعلن اهتداء عملاق إلى صراط ربه ! .

ونجد إحدى الروايات تقول : إن عمر كان فى جاهليته مباعدا للإسلام ، وكان صاحب خمر يحبها ويشربها ، وذات ليلة خرج يريد الخمار ليشرب فيسكر ، فمر فى طريقه على الكعبة ، فوجد رسول الله يصلى ويتلو القرآن ، فاستمع إليه . يقول عمر : « فلما سمعت القرآن رق له قلبى . فبكيت ، ودخلنى الإسلام » .

وربما كانت حادثة مروره على الكعبة قبيل الرواية الأولى ، فكان سماعه للنبى عند الكعبة يصلى ويتلو كتاب الله خير تمهيد لموقف إسلامه الذى شهدناه من قبل ، ومهما يكن من أمر فقد استطاع عمر بقوته النفسية وامتلاكه لناصية شخصيته ، أن يدير مفتاح هذه الشخصية من حيرة وضـــلال ، إلى رشد واهتداء .

* * *

ومضى قليل من الزمن على عمر ، ثم أقبل على الرسول يقول :

يا رسول الله ، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ .

فقال له النبى : بلى ، والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم ! .

قال عمر : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن ! .

وتلبث الرسول قليلا ، ثم استجاب لرغبة عمر ، فخرج فى صفين ، أحدهما

فيه عمر ، والآخر فيه حمزة ، وبلغوا الكعبة فى موكب له غباره ، دون أن يجرؤ أحد من قريش على اعتراض الجمع أو النيل منه .

ويومئذ كرم الرسول صلى الله عليه وسلم بطولة عمر وموقفه ، فسماه : « الفاروق » ، أى الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، وبين الظهور والخفاء .

وتذكر عمر عقيب إسلامه أنه كان قد اعتدى بالضرب على بعض المسلمين المستضعفين ، لأنهم كانوا قد أسلموا وهو لم يسلم بعد ، فأراد عمر عقب إسلامه أن يطبق شرعة العدل والقصاص على نفسه ، بأن يعرضها لما تعرض له هؤلاء من قبل ، فتوجه إلى رجل معروف بحرصه على إذاعة الجديد من الأنباء ، وأخبره عمر أنه قد أسلم . فسار الرجل بين الجموع متنقلا يعلن إسلام عمر .

وتعرض عمر بسبب ذلك لإيذاء قومه ، فأخذوا يعتدون عليه ، وأخذ يدافع عن نفسه ، وهو يحس كأن اعتداءهم عليه تطهير له مما قد ارتكبه بالأمس من عدوان على المسلمين ! .

* * *

رضوان الله على عمر العربى الذى تأثر ببلاغة القرآن المبين المعجز . والذى تحركت فى نفسه الرحمة بسبب ما رأى من أثر قسوته على أخته ، والذى يكمن فيه عنصر العدل والإنصاف . وإن طغت على عقله وإنصافه تقاليد الجاهلية والإبقاء على مواريث الأسلاف حينا من الزمان ! .

رضوان الله على العملاق الذى أعطى درساً فى بطولة الاهتداء .

بطولة عداله

إن الناظر فى صفحات التاريخ تلوح لعينيه خلالها قِمَمٌ شوامخُ ، يعلوها مصلحون عمالقة ، وقَـفُوا المواقف الخالدة للعدالة والإنصاف . ومن العجيب أنه توجد بعضُ المشابه بين هؤلاء العمالقة ، على الرغم من اختلاف الزمان والمكان والبيئة .

فيروى التاريخ مثلا أن كسرى أنوشروان حينما هَمَّ ببناء إيوانه ، أراد عماله أن يُدخلوا فيه قطعةَ أرض مغتصبة من أصحابها ، وذلك ليكون الإيوان مربعا ، وبدون هذه القطعة لا يكون ذلك ، ولما علم كسرى بذلك أبَى ، وقال : لأن يقال إن إيوانى معوجٌ خير من أن يقال إن كسرى قد ظَلَـم ! .

وتمر الأيام ، وتختلف الأشخاص ، ويتبدل المكان ، وتشاء الأقدار أن يعيد التاريخُ نفسه فى عهد إمام العادلين من الحاكمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ فقد شرع واليه على مصر « عمرو بن العاص » فى إقامة مسجده المعروف باسمه فى مدينة الفسطاط (مصر القديمة) . وكانت لإحدى السيدات القبطيات دار بجوار مكان المسجد ، فأخذها عمرو ؛ وأدخلها فى بناء المسجد لإكماله ، ولـكن المرأة لم توافق ، وذهبت إلى أمير المؤمنين عمر شاكيةً ، فـكتب عمر إلى واليه عمرو يقول : « نحن أولى بالعدل من كسرى ياعمرو » . ولما بلغ الـكتابُ سارع عمرو بهدم المسجد ، وأعاد الأرض إلى صاحبتها ، وبنى المسجد من جديد ! .

وتمر الأيام ، وتختلف الأشخاص ، ويتبدل المكان ، ونرى « فردريك » ملك « بروسيا » يريد أن يقيم فى ضاحية « بوتسدام » بجوار « برلين » مقبرة لملوك ألمـانيا ، وكان فى المكان المختار لبناء المقبرة طاحونة هوائية لطحَّـان فقير ، فأراد فردريك أن يأخذ مكانَ الطاحونة ليدخله فى المقبرة ، فرفض الطحان ذلك ، فهدده فردريك بأنه سينتزع المكانَ بالقوة ، وأرسل فردريك

من يخبر الطحان بذلك ، فقال الطحان للرسول : « إن فردريك لا يستطيع ذلك ، لأن برلين فيها قضاة وقانون » ! .

فسرَّ فردريك من إجابة الطحان ، وكافأه ، وأبقى الطاحونة — ولا تزال — إشارة ورمزاً إلى احترام العدل والإنصاف .

* * *

ويروى التاريخ كذلك أن مسلمة بن سعيد مات وعليه للخليفة المنصور دين ، وعليه لبعض الناس غير الخليفة ديون ، فكتب المنصور إلى عامله يقول : « استوف لأمير المؤمنين دَيْـنَه ، وفرِّق ما بقى بين الغرماء » .

فلم يلتفت العامل إلى كتابه ، وضرب للخليفة بسهم من المال ، شأنهُ شأنُ كلِّ دائن ، من غير تمييز ، فلما علم المنصور بما فعل عامله كتب إليه : « مُلئت الأرضُ بك عدلا ، وارتفع بفعلك هذا من الظلم كثير » .

ومما ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أوحى إلىَّ : يا أخا المرسلين ، يا أخا المنذرين ، أنذر قومَـك فلا يدخلوا بيتاً من بيوتى ولأحد من عبادى عند أحد منهم مظلمة ، فإنى ألعنه ما دام قائماً يصلى بين يدى ، حتى يرد تلك الظُّـلامة إلى أهلها ، فأكون سمعَـه الذى يسمع به ، وبصرَه الذى يبصر به ، ويكون من أوليائى وأصفيائى ، ويكون جارى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى الجنة » . وأنه قال : « ما من عبد ظُلِـمَ فشخص ببصره إلى السماء ، إلا قال الله عز وجل : لبيك عبدى حقا ، لأنصرنك ولو بعد حين » ! .

ليت الذين يلون أمورَ الناس صغارها وكبارها يذكرون هذه الخطرات وهم يتصرفون فى شئون العباد ، فيحرصوا على التشبه بأولئك العمالقة الخالدين ، الذين نقشوا على صدر الإنسانية دروسَ العدالة الحقّ ، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة من الاقتداء ، فلا أقل من الخوف والارعواء ، أمام هذا الوعيد الشديد من رب الأرض والسماء ! .

بطولة مرحمة

تطوف بنا فى رمضان من كل عام ذكرى يوم من أيام الإسلام ، مشرق الصفحات ، باهر اللمحات ، عميق العظات ، وهو يوم الفتح المبين : فتح مكة الذى كان فى طليعة أحداث الثلث الأخير من رمضان فى السنة الثامنة للهجرة ، وهو اليوم المجيد الذى شاء الله أن يضع فيه حداً للضلال والبهتان ، وأن يمكن فيه لدعوة اليقين والإيمان ، وأن يتم على كلمة الحق فتحاً مبيناً بلا قتال .

فهذا رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه — يوقع قبيل الفتح صلح « الحديبية » مع قريش ، بالرغم مما فيه من شروط قاسية على المؤمنين ، ولكن النبي يقبلها لأمر يريد الله أن يبلغه : « وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » . ولأنه يريد توطيد السلام ، ونشر الإسلام .

وأخذت قريشٌ لنفسها فى هذا الصلح ما أحبت من الشروط والاحتياطات ، ومع ذلك نقضت العهد ، وخانت الميثاق ، واعتدت على حلفاء المسلمين ، وقتلت منهم عشرين على حين غفلة ، شأنَ الذين لا عهد لهم ، ولا هادى يهديهم من شرف أو وفاء .

وأحست قريش بسوء ما فعلت ، وقدرت تبعات ما اقترفت ، وحاولت أن تخادع المسلمين والله خادعها وقامعها ؛ فجاء أبو سفيان إلى المدينة عقيب ذلك العدوان — وقد كان زعيما لقريش يومئذ — جاء محاولا لقاء الرسول ، ظانـًا أنه لم يعلم بالعدوان ، كى يؤكد العهدَ ، أو يجدده ويزيد فى مدته ، وهيهات ! .

وكانت بنته « أم حبيبة » زوجة للرسول ، فأراد أبو سفيان أن يستغل هذه الرابطة ، فدخل على ابنته يريد أن ينتفع بها فى خداعه ومسعاه ، وخاب

فأله ، فلقد أراد أن يجلس على فراش النبي ، وهو لم يتطهر بالإسلام بعد ، فطوت أم حبيبة الفراش عنه ، فعجب منها ، وقال لها : يا بنية ، ما أدرى : أرغبت بي عن هذا الفراش (أى تكريماً لى عنه) أم رغبت به عنى (أى ارتفعت به على) ؟ . فأجابته إجابة المؤمنة التي تنسى في سبيل ربها ونبيها وعقيدتها كل صلة ، وكل قرابة ، قالت : « بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله » !

فدهش أبو سفيان لهذه المفاجأة ، وقال : والله لقد أصابك بعدى شرٌّ يا ابنتى !. وحاول أبو سفيان أن يحقق شيئاً مما جاء له ، فلم يفز بطائل ، وعاد إلى مكة بخفى حنين !.

* * *

وانتهز الرسول الفرصة ليضرب ضربته الصالحة المصلحة ، التي يزهق بها روح الفساد ، ويثبت بها دعائم الحق ، فجمع الجموع في سرعة . وسار في عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفاً ، يريد فتح مكة سراً وفجأة ، ولم يتخلف عنه أحدٌ من المهاجرين أو الأنصار ، وكان يريد بهذه الكثرة أن يجعل المشركين أمامَ الأمر الواقع ، فلا يطيقوا مقاومة هذا الجيش الضخم ، فيسلموا ، ولا يكون هناك نزال أو قتال ، ولذلك أخفى الرسول مقصده ، وأمر قومه بالسرعة والجد .

وكان يدعو ربه قائلا : « اللهم خذ العيون والأبصار عن قريش ، حتى نبغتها في ديارها . اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعوا بنا إلا فجأة » . وتلك طريقة الحرب الخاطفة ، سبق إليها النبي منذ مئات ومئات من السنين ، ولكنه لم يستخدمها كما يصنع طواغيت الحروب وجبابرة المعارك للتدمير أو الاستعباد ، بل للدفاع عن الإسلام ونشره وتحطيم الأغلال والأصفاد .

وسعى ركب الرسول الحاشد ، وخرج أبو سفيان القوى العملاق

يتحسس ويستطلع ، وفى ذهنه ما فيه من دهشة لتخاذل الكفر يوما بعد يوم ، وسطوع الإيمان حيناً بعد حين .

وما هى إلا لحظات حتى يلتقى بالرسول ويسلم ، ويخضع للحق .. وما زال الركب على الطريق ، ويأمر النبى عمه العباس أن يقف بأبى سفيان عند مضيق الوادى « حتى تمر به جنود الله فيراها » !

ولما رأى أبو سفيان ما رأى من الجنود والحشود عجب وقال للعباس : « والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » . فصحح له العباس فكرته قائلا : « ويحك يا أبا سفيان ، إنه ليس ملكا ، إنها النبوة » ! . فيذعن أبو سفيان ويقول : فنعم إذن ! .

وبعد أن خرج أبو سفيان من مكة منذ قليل زعيما للمشركين ، عاد إليها يتقدم الركب وهو أحد المسلمين ، يخذل أهل مكة ، ويؤيسهم من فائدة القتال ، ويدعو إلى التسليم .

وجعل ينادى فيهم بإكرام الرسول له ، الذى جمع فيه بين إرضاء فخره ، وتحقيق ما يريده من سلام ، وهو قوله : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن » ! . .

ويا له من صنع إلهى أن ينقلب المحرّض القوى ضدّ الإسلام ، داعياً قوياً يمهد الطريق للإسلام والسلام ، والله يؤيد دينه بمن يشاء ، وسبحان مقلب القلوب ، ومن يأخذ بنواصى العباد إلى ما أراد ! .

وقسم الرسول جيشه الضخم ، وأمر كلّ قسم بأن يدخل مكة من جهة ، لتتم المفاجأة أو المباغتة ، فلا يجد الناس أمامهم إلا التسليم بلا صدام ، ونهى النبى أن يقاتل أحدٌ أو يريق دماً إلا مضطرا ، وحدث أن استبدت الحماسة بأحد المسلمين ، وكأنه لم يعلم خطةَ الرسول السلمية ، وكان يحمل راية من

رايات المسلمين ، فقال : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا » ! .

فغضب الرسول من ذلك ، ونزع الراية منه ، وأعطاها غيره ، وقال : « اليوم يوم المرحمة ، اليوم تُصان الحرمة ، اليوم أعز الله قريشا » ! .

ويا له من قول نبى كريم ، ورسول عظيم ، تعالى على الأحقاد والأضغان ، وسما بمكانة الإنسان إلى ذروة الرحمة والحنان .

ومضى الركب الهائل فى طريقه ، والرسولُ يخفض رأسه على راحلته تواضعا ، وخشيةً من ربه ، وخضوعاً لجلاله ، حتى يمس شاربُه ظهرَ الدابة . وعاد المهاجرون إلى بلادهم ، ورجع الغريبُ إلى داره .

ودخل محمد مكة التى أخرجته وآذته ، دخلها بعد غيابه عنها ثمانى سنوات ، ورأى مشاهدَ الوطن الحبيب ، ورأى المسالك والدروب التى سار فيها طفلا وفتى وشاباً ورجلا رسولا ، وتطلع إلى الشعاب والجبال ، حيث أوذى وطورد وعذِّب ، وتطلع إلى غار حراء حيث تعبد وتحنث وتلقى الوحى ، وتطلع إلى الكعبة الحرام التى حيل بينه وبينها زمناً طويلا ، فترقرق الدمع فى عينيه ، من جلال الذكرى وروعة اللقاء .

* * *

وطاف محمد ومن معه بالبيت العتيق ، وسارع بالتطهير الكامل ، فحطم الأصنام المحيطة بالكعبة ، وهو يقول :

« جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً »

وأمر بلالا داعىَ السماء أن يؤذن ، فانطلق الأذانُ بكلمة التوحيد ، ودعوة الصلاة ، وهتاف الفلاح ، فى رحاب البلد الحرام ، ومن حمى الكعبة الحرام .

وفتح الرسول بيت ربه سبحانه ، وطهره مما فيه من بقايا الجاهلية ، مردداً قوله : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده » !.

وجاء موقف الجلال الرائع والنبل العظيم ، حين تعلقت عيون المكيين الخائفين بشفتي محمد الذى قال لهم : ما تظنون أنىِّ فاعلٌ بكم ؟.

فقالوا فى إجلال ورجاء : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

فقال الرسول السمح ، والنبي الفاتح ، والزعيم المتمكن ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » !..

وكأنما قد انتشروا من القبور حين سمعوا ما سمعوا ؛ فقد كانوا ينتظرون الجزاءَ العادل تقتيلا وتشريدا ، فجاءهم عفواً كريماً وصفحاً حميدا ، فآمنوا أن محمداً هو رحمة الله المهداة ، وأنه رسول هذه الحياة ، فدخلوا فى دين الله أفواجا ، وتحقق « نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ » .

بطولة قدوة

ما أحوجنا ونحن نعيش فى عالم مائر حائر ، تتجاذب أبناءه الشهوات والأهواء ، إلى أن نفتح آذاننا جيداً لصوت الأسوة الحسنة والقدوة الكريمة يأتينا من جوف الماضى المزهر الباهر ، حيث تتألق صفحات تاريخنا الإسلامى بالمواقف الغُرّ والحوادث الزُّهر التى ازدانت بها حيوات الأئمة الأبطال من سلفنا الصالح ، وأجدادنا الميامين .

وما أجدرنا بأن نعتبر حين نسمع ، وأن نستجيب حين نعتبر :

« ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ ، وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ[1] » .

وما أحوجنا فى بعض الأحيان ، إلى أن نحبس أقلامنا عن جريانها بما تحسنه أو ما لا تحسنه ، من تشقيق الكلام ، وتزيين الأسلوب ، وتوليد المعانى ، وأن نترك لغةَ الأجداد بمنطقها الواقعى الرائع وهديها التطبيقى الباهر . تأخذ سبيلها إلى الأسماع والمشاعر ، فتثير ما تثير من كريم العاطفة ونبيل الوجدان .

ولله المثل الأعلى فى هذا الباب ، فهو الذى أنبأنا أن قصص أنبيائه ومواقف رسله ، فيها القدوة الأولى ، والمثل الرفيع للإنسان : « لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ، وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[2] » .

وهذا دافع خفى يأخذ بيدى لتتعرض أمام الأبصار والبصائر هذه اللمحات من حياة الفقيه العظيم ، ناصر القرآن ، وجندى الإيمان ، والهازىء بالطغيان

---

(١) سورة الزمر ، الآية ١٨ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ١١١ .

والبهتان ، والمناضل عن السنة ، والصابر فى المحنة ، الإمام الجليل «أحمد بن محمد ابن حنبل » عليه سحائبُ الرحمة والرضوان

* * *

ولد ابن حنبل رضى الله عنه ببغداد فى ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ[1] بعد أن قدِمت أمه وهى حامل به من «مرو» ، وهو عربى أصيل من قبيلة شيبان بن ذهل ومات أبوه وهو ابن ثلاث سنين ، ولما بلغ مبلغ الشباب تفتحت عيناه على أنوار الهدى والتقى فى مدينة السلام بغداد ، فأحب بطبيعته النقية وغريزته السليمة أن يقبس ما استطاع من تلك الأضواء ، فحفظ القرآن والحديث وعلوم اللغة .

ثم سعى إلى أستاذه « الشافعى » فجلس بين يديه سنتين كاملتين ، تلقى فيهما عنه الفقه وعلم الأصول ، وحينئذ بدا من ابن حنبل ما بهر وأسر ، وما أطلق ألسنة العلماء عليه بالمدح والثناء ، حتى قال عنه الشافعى : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أحداً أتقى ولا أورع ولا أفقه من أحمد بن حنبل » .

وقال عنه أبو عمر بن النحاس : « فى الدين ما كان أبصره ! وعن الدنيا ما كان أصبره ! وفى الزهد ما كان أخيره ! وبالصالحين ما كان ألحقه ! وبالماضين ما كان أشبهه ! عُرضت عليه الدنيا فأباها ، والبدع فنفاها » ! ! .

* * *

وكان رضى الله عنه مشغوفاً بطلب العلم ، يرى أنه من الواجب على الفقيه أن يطلبه من المهد إلى اللحد ، إذ لا غايةَ للعلم ، ولا ساحل لبحاره ؛ ولذلك كان دائم المطالعة والاستذكار ، لا يُرى إلا قارئاً أو كاتباً أو سامعاً ، ولقد رآه أحد أصحابه وهو يحمل محبرةً بعد أن بلغ من التفقه والدراية ما بلغ ، فعاتبه على حمله للدواة ، وقال له : يا أبا عبد الله ، أنت قد بلغتَ هذا المبلغَ وأنت إمام المسلمين ! . .

فأجابه ابن حنبل قائلا : « مع المحبرة إلى المقبرة » ! . . . أى أننى سأظل أتعلم إلى أن أموت ! .

---

(١) يوافق (نوفمبر سنة ٧٨٠ م) .

ولقد شغله العلم والفقه عن التمتع بطيبات الدنيا وحلالها المباح ، وما استطاع أن يتزوج إلا وقد بلغ أربعين سنة ! .

وفى سبيل هذا العلم المحبوب طاف ابن حنبل بأكثر الديار الإسلامية ، لا لهواً ولا لعباً ، ولا طلباً للراحة أو الاستشفاء أو الاصطياف ، بل للقاء الكبار من العلماء والأخذ عنهم .

فرحل إلى الكوفة ، والبصرة ، والمدينة ، ومكة ، واليمن ، والشام ، والجزيرة ، كلها فى طلب العلم ، وكتب عن علماء كل بلد ، وقد أفادته هذه الرحلات العلمية كل الإفادة ، فأحاط بأصول الدين ، وصحيح الحديث ، حتى ألف كتابه العظيم « المسند » .

ووضع قواعد ذلك المذهب الفقهى الحنبلى ، الذى امتاز بتمسكه بالدين ، ومحاربته للبدع والمنكرات ، وأخذه للمسلمين بما يقتضيه التدين المتين ، من الإقبال على الله عز وجل ، والأخذ فى عبادته بعزيمة واجتهاد ! .

* * *

وكان رضى الله عنه فى أثناء تعلمه مثال الطالب المؤدب ، الذى يحترم أساتذته ويجل شيوخه ، ويعرف أنه أسير لهم ، ماداموا قد حرروه من أغلال الجهالة ، وزودوه بزاد المعرفة .

ولقد أقبل ابن حنبل ذات يوم على مجلس أستاذه ، « وكيع بن الجراح » والناس حوله كثير ، فجلس فى خشوع وأدب ، لا يتكلم ولا يتحرك ؛ فقال له أحد الجالسين : يا أبا عبد الله ، إن الشيخ يكرمك ، فمالك لا تتكلم ؟ . فقال : إن يكن يكرمنى فينبغى أن أجله ! .

ولم يكن رضى الله عنه يكثر من الصمت ضعفاً أو خوفاً ، ولكنه الحياء والأدب ، وجلال العلم ووقار التقى ، والاهتداء بهدى الله الذى ينهى عن الاشتغال بما لا يفيد ، أو الدخول فيما لا يعنى ، فإذا ماجد الجد ، وحانت ساعة الفصل ، رأيت الإمام كالبحر الزاخر يفيض بالآيات .

قال أبو داود السجستانى : لقيت مائتين من مشايخ العلم ، فما رأيت مثل أحمد ابن حنبل ، لم يكن يخوض فى شىء مما يخوض فيه الناس ، فإذا ذكر العلم تكلم !.

* * *

وكان ابن حنبل صادق التقوى شديد الخوف من ربه ، لا يغتر بمديح الناس له ، ولا بإقبالهم عليه ، وقد حدث أن كثر الذين يمدحونه ، ويشيدون بذكره ، ويرجون له من ربه العزةَ فى الدنيا والآخرة ، فقال له بعض أصحابه : ما أكثر الداعين لك ! .

فاغرورقت عيناه بالدموع وقال : أخاف أن يكون هذا استدراجاً ؛ أسأل الله أن يجعلنى خيراً مما يظنون ، وأن يغفر لى ما لا يعلمون ! .

ومن الواضح الجلى فى حياة هذا الإمام الجليل أنه ما كان يريد عُلوًّا فى الأرض ، ولا انتشاراً للصيت ، فكان لا يحب التظاهر بالصلاح ، أو الشهرة بأنه ولىٌّ مقرَّب من الله مستجاب الدعوة ! .

فقد روى البيهقى أن رجلا جاء إلى الإمام أحمد فقال له : إن أمى مقعدة منذ عشرين سنة ، وقد بعثتنى إليك لتدعو لها .

فغضب الإمام من ذلك وقال : نحن أحوج ان تدعو هى لنا من أن ندعو لها ! .

وكأنه أراد بعد ذلك ألا يرد الرجل فيحزن أو يخجل ، فدعا الله عز وجل بنفس كسيرة وقلب ضعيف أن يكشف البلاء عنها ، فرجع الرجل إلى أمه ، فدق عليها الباب ، فخرجت إليه تسعى على رجليها ، وقالت : قد وهب الله لى العافية ! .

وظنى أن الله لم يستجب دعاء أحمد إلا لأنه اعتقد فى نفسه الضعف والذلة أمام الجبار ، وسأله سؤال الخاشع الخاضع ، فاستجاب الله دعاءه ؛ لأن الله نصيرُ المؤمنين الضعفاء ، الذين لا يفتخرون ولا يتغطرسون ، ولا يظهرون فى الأرض الفساد ! . .

فإذا ما انتقلنا إلى بيت ابن حنبل وأسرته ، وجدناه مثال الزوج الكريم ، والوالد الرحيم ، الذى يقيم دعائم بيته على أسس المحبة والتفاهم ، والمودة واللين ، فقد كانت له زوجة اسمها « عباسة بنت الفضل » ، وكان يحبها ويثنى عليها ؛ إذ كانت عليمةً فقيهة ، تروى الحديث وتحفظه ، ورزقه الله منها ابنه « صالح » ، وماتت فى حياته فتزوج غيرها .

وقد قال عنها ابن حنبل : أقامت معى أم صالح ثلاثين سنة ، فما اختلفت أنا وهى فى كلمة ! . . فيا للجلال والروعة ! . . . ثلاثون سنة طويلة عريضة ، بشهورها وأسابيعها وأيامها وساعاتها ، ومواقفها وسرائها وضرائها وألوانها وحوادثها ، تنقضى على هذين الزوجين الكريمين دون أن يختلف أحدهما مع الآخر بكلمة ! .

فماذا نقول عن بعض بيوت اليوم ، وكلها الضجيجُ والعجيج ، والاختلافُ والشجار ، والمآسى والمخازى ؟ ! . حقيقة لقد ذهب الصالحون ! .

* * *

وكان أحمد بن حنبل — اذا دعا ربه — بليغاً مؤثراً ، يكاد تتصل روحه بالملأ الأعلى ، فتتحدث بلغة السماء ! ولقد قال أحد معاصريه وهو « ابن يعقوب الصفار » : كنا مع أحمد بن حنبل « بسر من رأى » . فقلنا : ادع الله لنا .

فقال : « اللهم إنك تعلم أنك على أكثر مما نحب ، فاجعلنا على ما تحب دائما » . ثم سكت ، فقلنا : زدنا . فقال : « اللهم إنا نسألك بالقدرة التى قلت للسموات والأرض : « ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » ، اللهم وفقنا لمرضاتك ، اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ونعوذ بك من الذل إلا لك . اللهم لا تكثر لنا فنطغى ، ولا تُقلَّ علينا فننسى . وهب لنا من رحمتك وسعة رزقك ما يكون بلاغاً لنا فى دنيانا ، وغنى من فضلك » ! .

وكان كثيراً ما يردد هذا الدعاء :

« اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمةَ

من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، ولا تدع لنا ذنبا إلا غفرته ، ولا هما إلا فرجته ، ولا حاجة إلا قضيتها » .

إلى غير ذلك من كلمات الدعاء التى يتضح لك منها بلاغة الإمام ، وحسن اختياره ، وقوة تأثيره ، وعمق إيمانه ! .

***

وأخيراً ، وبعد سبعة وسبعين عاما قضاها الإمام أحمد بن حنبل عزيزاً كريماً صبوراً ، يحتمل الأذى فى سبيل دينه ، ويعرض عن الدنيا ومتاعها ، مرض بالحمى ، وظل مريضاً تسعة أيام ، ولما حانت الساعة التى يلقى فيها ربه ، أمر أهله أن يوضئوه ، ففعلوا ، وخرجت روحه الطاهرة وهم يوضئونه ، وهو يذكر الله مهللا ومسبحا ومكبراً ! .

وكان موته يوم الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٢٤١ هـ ، وكفن فى ثوب غزلته له جاريته ، وشيع إلى مقره الأخير ، فى جنازة لم تشهد بغداد مثلها ، إذ اشترك فيها ما يقرب من ثمانمائة ألف رجل ، وشهدها من خلف الأسوار ستون ألف امرأة ، ثم دفن فى قبره بين « مقابر الشهداء » فى « حى الحربية » ببغداد .

وكان يوم وفاته يوماً أليم الوقع فى النفوس ، وخصوصاً لدى أولئك الذين حرمتهم الأقدار أن يروه فى ساعاته الأخيرة ، أو يشتركوا فى تشييعه ، ولكن الذى خفف على هؤلاء أحزانهم هو أنهم كانوا يرون الإمام ابن حنبل بعد موته وهو رافل فى حلل الغبطة والسعادة بجنات النعيم .

عن محمد بن خزيمة الإسكندرانى قال :

لما مات أحمد بن حنبل اغتممت غماً شديداً ، فرأيته فى المنام وهو يتبختر فى مشيته ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، أى مشية هذه ؟ .

فقال : مشية الخدام فى دار السلام .

فقلت : ما فعل الله بك ؟ .

فقال : غفر لى وتوجنى ، وألبسنى نعلين من ذهب ، وقال لى : يا أحمد ، هذا بقولك : القرآن كلامى . ثم قال الله لى : يا أحمد ، أدعنى بتلك الدعوات التى بلغتك عن سفيان الثورى ، وكنت تدعو بهن فى دار الدنيا . فقلت : يارب كلّ شيء ، بقدرتك على كل شيء . اغفر لى كل شيء . . حتى لا تسألنى عن شيء ! . فقال الله لى : يا أحمد ، هذه الجنة ، قم فادخلها . فدخلت فإذا أنا بسفيان الثورى ، وله جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهو يقول :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ؛ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ[1] » .

فقلت له : ما فعل بشر الحافى (الزاهد الورع المتعبد) ؟ .

فقال : بخ بخ ! ومن مثل بشر ؟ تركته بين يدى الجليل[2] ، وبين يديه مائدة من الطعام ، والجليل مقبل عليه وهو يقول : كل يا مَنْ لم يأ كل ، واشرب يا من لم يشرب ، وانعم يا من لم ينعم ! .

ولِمَ لا يرفل ابن حنبل فى ثياب النعيم ، ويتملب مع إخوانه السابقين فى جنبات الفردوس ، ويحظى بخطاب العلى الأعلى وتشريفه ، وقد كان عفيفَ اللسان ، طاهر الجنان ، صائم النهار ، قائمَ الليل ، محروما من اللذات ، مجاهدا فى سبيل الله بعلمه وماله وحياته ، وكان لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ! ! .

ومات يوم مات ولم يترك خلفه مالا ولا ديارا ولا عقارا ، وهو لو اراد وقبل الدنيا كما قبلها الناس لشبع جاهاً ومالا ، ولكنه فضل ما عند ربه ، وما عند الله خير للأبرار ! .

* * *

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٧٤ .

(٢) يقصد الله تبارك وتعالى .

من لنا بمن يغرس فى قلوبنا هذه البذور النافعة ، ومن يأخذ بأيدينا إلى الاقتداء بتلك المثل العالية ، ومن يوجه أبصارنا وبصائرنا إلى ذلك النور الذى انبثق فى فجر التاريخ على أيدى أولئك الأعلام ، لنستضىء به فى ظلمات الأيام ؟ .

ومن لنا بمن يُسمِع الدنيا كلها حديث أولئك الغُرّ الميامين ، ليعلم القاصى والدانى أن سيادةَ الدنيا وعمارتها لا تكونان بالحديد والنار ، وإنما تكونان بسامى العقائد ، ونبيل الأخلاق ، وفاضل الأعمال . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

الطريق إلى بطولة النصر

إن من واجبنا أن نتذكر أو نتعرف عوامل النصر التى رسمها الله لعباده فى طريق جهادهم وكفاحهم ، والتى صورها القرآن الكريم كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

إن القرآن الكريم - وهو كتاب حق ، وكتاب عزة ، وكتاب جهاد — يرسم لنا صورة كاملة للعوامل التى ننتصر بها فى المعركة ، وهو يبدأ هذه العوامل بتقرير الإيمان بالله والوطن ، ونجد فى آيات كثيرة هذا المعنى ، فيقول القرآن مثلا : « الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ[1] »

ونجد أغلب آيات الجهاد مبدوءة بهذا الخطاب الذى يصف المجاهدين بصفة الإيمان : « يأيها الذين آمنوا » . ولذلك ربط الله الإيمان بالنصر ، فقال : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » وقال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقال : « بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ » .

والإيمان بالله يستتبع الإيمان بالوطن ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « حب الوطن من الإيمان » .

* * *

والعامل الثانى من عوامل النصر — كما يصورها القرآن الكريم - هو قوة الجيش والسلاح والعتاد ، وخير ما يصور ذلك هو قول الله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ ، اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ[2] » .

(١) سورة النساء آية ٧٦ . والطاغوت هو الشيطان . (٢) سورة الأنفال آية ٩٠ .

والخطاب فى قوله تعالى : « وأعدوا » موجه للأمة كلها ، لا للحاكم وحده ؛ ولا للحكومة فقط ؛ ولا لقوة الجيش بمفردها ؛ بل هو خطاب إلهى يشمل كل قادر على الإعداد والاستعداد ؛ سواء أكان رجلا أم امرأة ، شيخا أم شاباً ، غنيا أم فقيرا ؛ كل واحد منهم يبذل ما يستطيع من ماله ، أو جهد يده ، أو جهد عقله ، فى سبيل الإعداد ، لأن الخطاب عام فى قوله تعالى : « وأعدوا . . . . » .

ومعنى هذا أن الأمة كلها مطالبة بأن تكون مجنَّدة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وأن تكون مشاركة فى عملية الإعداد ؛ وحتى الذين يعجزون عن المشاركة الفعلية فى المعركة كأصحاب الأعذار ؛ يستطيعون المشاركة فيها برأيهم ونصحهم وإخلاصهم . ولذلك يقول الله تبارك وتعالى : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ، وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ، وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ، إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ[1] » .

ثم يقول الله تعالى فى الآية السابقة : « وأعدوا لهم » ، لمن ؟ .. لهؤلاء الأعداء الذين يناصبونكم العداء ، لهؤلاء المجرمين الذين يتربصون بكم الدوائر ، ويريدون لكم الخذلان ، ويتمنون لكم الضعف ، دون الاعتداء على مسالم أو مجاور لا يبغى ولا يطغى .

ولذلك يقول القرآن الكريم : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ . أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ .. أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[2] » .

---

(١) سورة التوبة آية ١٦٥ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٨ .

ثم تقول الآية: « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ » أى كل ما قدرتم عليه، وكل ما استطعتموه، وأنتم أمة، وأنتم جمع كبير، وأنتم جمهرة ضخمة، إذا تعاونت قدرت على الكثير، والخطاب أيضا للجميع، لا لفرد دون فرد، ولا لطائفة دون طائفة.

ثم تقول الآية: « من قوة »... وهذه الكلمة تفيد شمول الأنواع والأبعاض، أى كل نوع من أنواع القوة، وكل جزء من أجزائها، وكل بعض من أبعاضها. فلا تدعوا وسيلة ولا حيلة ولا طريقة، ولا سبيلا من سبل القوة يدخل فى مكنتكم واستطاعتكم وقدرتكم إلا سلكتموه وانتفعتم به.

ثم تقول الآية: « ومن رباط الخيل ». والمقصود برباط الخيل فى الاصطلاح العسكرى الحديث « سلاح الفرسان »، ومن الممكن أن نطلق على كل قوة سريعة التحرك والانتقال كلمة « رباط الخيل » بقليل من المجاز، وذلك لأن الخيل كانت يوم نزلت الآية الكريمة أسرع وسائل الانتقال فى الميدان، فيقابلها اليوم كل آلة أو سلاح سريع الانتقال.

ثم قالت الآية: « ترهبون به ». فأنتم لا تعتدون بهذا الإعداد أو هذا السلاح، ولا تهاجمون به مسالما، ولا تستعمرون به بلادا ليست لكم، ولا تحتلون به أرضاً لا تدخل فى ملككم، بل ترهبون به الأعداء، وتخيفونهم به، حتى تظلوا مهيبين محترمين، لا يطمع فيكم طامع، ولا يتطاول عليكم متطاول، إذ لا يكفى أن تكونوا أصحاب حق، بل لابد للحق من قوة تحرسه وتحميه وتصونه، وتدافع عنه عند اللزوم، وقديما قيل: « من لم يتذأب أكلته الذئاب ».

والإسلام لا يريد لنا أن نتذأب، ولكنه يريد لنا أن نكون أسوداً رابضة على حدود الحمى، فإذا فكرت الذئاب الدخيلة أو الطارئة فى الاعتداء علينا جعلنا مصيرها الهلاك، وأذقناها الموت الزؤام.

فالأمة الناهضة الواعية المتوثبة للمجد والعزة والكرامة، تعد جيشها

وسلاحها وذخيرتها لتخيف أعداءها بكل ذلك ، لا بالقول العريض ، ولا بالتمنى الواسع ، ولا بالأحلام الخيالية ، ولا بترديد مفاخر الآباء والأجداد فقط . وهذا شاعر عربى يترجم عن ذلك خير ترجمة فيقول :

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوماً على الآباء نتكل

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ، ونفعل مثلما فعلوا

وقد وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث تفيد معنى الإعداد والاستعداد والرباط ، وتفيد معنى حراسة الحق والحمى والوطن بالقوة المهيأة ، والجنود المدربة ، والسلاح الموفور ، والسيوف المتأهبة للنضال إذا حانت ساعة النضال ، فيقول الرسول : « الجنة تحت ظلال السيوف » .

ويقول « جُعل رزقى تحت ظلال رمحى » .

ويقول : « رباط يوم فى سبيل الله أفضل من صيام شهر وقيامه » .

* * *

ومن عوامل النصر « الإنفاق » لأن إعداد السلاح ، وتكوين الجيش ، وتوفير الذخيرة ، يحتاج إلى مال وإلى ثمن ، والمعركه تحتاج إلى إنفاق قبل بدئها ، وحين قيامها ، وبعد انتهائها ، فنحن ننفق قبل المعركه فى الإعداد والاستعداد ، وننفق فى أثناء المعركة لتموينها وإمدادها ، ولذلك يقول الله تعالى : « وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » .

وهناك الإنفاق اللازم على أسر الجنود وعائلات المجاهدين فى الميدان . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا » .

والإنفاق أيضا يكون بعد المعركة ، لأن المعركة بطبيعة الحال تترك من ورائها آثارا فى الإنسان ، وفى البنيان ، وفى العمران ، وهذه الآثار تحتاج إلى إصلاح وتعمير ، ومن الواجب على كل قادر فى الأمة أن يسهم فى هذا الإنفاق بما يستطيع .

* * *

ومن عوامل النصر الأخذ بالأسباب والوسائل العملية للنصر ، وهذا لا ينافى الإيمانَ بالقضاء والقدر ، لأن رب القضاء والقدر وهو الله يأمر باتخاذ الأسباب والوسائل ، والقرآن الكريم فى مواضع كثيرة يأمر بالعمل : « وقل اعملوا » . ولقد نصر الله المسلمين يوم بدر وهم قلة ، لأنهم استقصوا جهودهم وبذلوا طاقتهم . وخذل الله المسلمين يوم حنين لأنهم قد أعجبتهم كثرتهم ، واغتروا بعددهم ، واتكلوا على هذا ، حتى قالوا : « لا غالب لنا اليوم من الناس » ، واتكلوا على أنهم مسلمون مؤمنون بالله ، فلابد أن ينصرهم الله بلا جهد .

يقول الله تعالى : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ[1] فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ويقول أيضاً : « لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ[2] » .

ويوجهنا القرآن الكريم إلى أهمية الأخذ بالأسباب العملية ، والاحتياط فى المعركة ، فيقول : « وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ ، فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً[3] » .

ويشير إلى أثر العامل المادى فى كسب المعارك ، ويرمز إلى أن الحديد هو

---

(١) أى ضعفاء بسبب القلة — سورة آل عمران آية ١٢٣ .

(٢) سورة التوبة آية ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) سورة النساء آية ١٠٢ .

العامل الأساسي في القوة ، فيقول : « وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ[1] » .

ويقول أيضاً في مجال الإشارة والرمز إلى هذه الناحية متحدثا عن داود نبي الله عليه السلام : « وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ، أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ، وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[2] » .

وهذا هو نوح في حادث الطوفان لا يتكل على القضاء والقدر ، بل يصنع السفينة بأمر ربه ليركبها مع من آمن به : « وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا » .

* * *

ومن عوامل النصر التي يصورها القرآن الكريم أيضاً ترتيب المعارك ، بأن نبدأ في محاربة الأعداء بالأقرب فالأقرب ، لأننا لو تركنا العدو القريب الباغي ، وانتقلنا إلى عدو بعيد ، أو أقل عداوة من الأول ، لخشينا أن يكون في طريقنا كمين أو رصد ، وقد يفاجأ الجيش في هذه الحالة بحركة تطويق أو « كماشة » كما يعبرون ، تعرض الجيش للهلاك ، أو الهزيمة ، أو الخطر .

والقرآن يشير إلى هذا العامل حين يقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ[3] » والذين يلونكم أي يجاورونكم من أعدائكم الذين يضمرون لكم العداوة ، ويتربصون بكم الدوائر .

ولذلك تقول الآية ما معناه : ليشعر هؤلاء الأعداء المجاورون أن فيكم غلظة وشدة وقوة ، حتى تكون هذه الغلظة زجراً لهم ، ورداً لبغيهم ، وتأديباً لسواهم .

ويقول الله عز وجل مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : « فإما تثقفنهم في

---

(١) سورة الحديد آية ٢٥ .
(٢) سورة سبأ آية ١٠ ، ١١ .
(٣) سورة التوبة آية ١٢٣ .

الحرب فشرِّد بهم مَنْ خلفهم (أى الذين بعدهم ووراءهم) لعلهم يذكرون » أى يتعظون فيرتدعون . أى إذا عثرت على أعدائك المجاورين لك ، فشرد بهم الذين خلفهم ، أى افعل بهم من التأديب والعقاب والانتقام ما يكون سبباً فى تفريق الذين وراءهم ، وتمزيق الذين بعدهم ، بسبب الرعب والخوف .

ويقول القرآن أيضاً : « وَقَاتِلوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلونَكُمْ[1] » .. فهناك إذن مقاتلة ، والمقاتلة تقتضى اجتماع الفريقين المتقاتلين فى ميدان ؛ فهناك إذن حالة تجاور ، أوحالة التحام بين المتقاتلين ، فلا يعقل عاقل أن يترك الإنسانُ العدو الملتحم معه فى معركة ، أو على أهبة أن ينزل معه فى معركة ، ويذهب ليقاتل عدواً بعيداً عنه ، بل المعقول والأمثل أن يبدأ الإنسان بالتخلص من هذا العدو الملتحم ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى غيره من الأعداء .

* * *

ومن عوامل النصر كما يصورها القرآن المجيد عامل السمع والطاعة ، والاجتماع على قائد واحد ، وهذا يصوره القرآن حينما يقول : «وأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلا تَنَازَعُوا فَتَفشَلوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[2] » .

وعند ما يقول : « واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تفرَّقُوا »

ولا شك أن الاجتماع على كلمة واحدة وقائد واحد هو أساس الاتحاد والاعتصام والتكتل ، وبدون هذا يكون هناك تفرق وتمزق وشتات .

وفى غزوة أحد مثلا خالف بعض الجنود أمر القائد وهو الرسول عليه الصلاة والسلام ، فماذا كانت العاقبة ؟ . . . كانت أليمة وخيمة ، وأصيب المسلمون بالانكسار والهزيمة ، ولولا فضل الله ورحمته ، وتماسك النبى فى الميدان مع عصبة من الأبطال الثابتين ، لقضت عصابة الكافرين على كتيبة المؤمنين .

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٠ .

(٢) سورة الأنفال آية ٤٦

وقد أنزل الله تعالى فى شأن هذه المخالفة فى غزوة أحد قوله :

« وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ[1] حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ ، مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » .

***

ومن عوامل النصر أيضاً دقة التنظيم للجيش ، وحسن توزيعه ، والبراعة فى تحديد المواقع المناسبة لتجمعاته وتحركاته ، ومرابطة كل وحدة من وحداته ، أو كتيبة من كتائبه فى مكانها ، فإن التوفيق فى توزيع قوات الجيش على المواطن الملائمة لها ولوظيفتها وواجبها يعد خير تمهيد لكسب المعركة وتقليل تبعاتها وتكاليفها .

ولذلك يقول الله تعالى لرسوله متحدثاً إليه عما يبذله من تنظيم للجيش قبل المعركة وتوزيع لأماكن أفراده : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ[2] » . أى أنك تركت أهلك ، وخرجت حريصاً على أن تعين لكل فرقة أو فئة من الجيش مكانها المناسب لها الذى يجعلها صالحة فيه للقيام بمهمتها الموكولة إليها .

وقد يتصل بهذا أن تكون هناك خطة دقيقة منظمة لانبعاث كتل الجيش إلى المعركة أو خطوط القتال ، فهناك مثلا وقت يناسبه أن يخرج الجيش فصيلة بعد فصيلة ، أو فرقة وراء فرقة ، أو فيلقا فى إثر فيلق .

وقد يأتى وقت نحتاج فيه إلى خروج الجيش كله لمعركة عامة أو زحف عام تقتضيه المعركة ، ومن وراء الجيش تنبعث قوة الشعب كلها لتأييد ظهره ، وحماية جموعه ، وإمداده بما يلزمه من المساعدات المادية والمعنوية .

---

(١) أى تستأصلونهم قتلا — سورة آل عمران آية ١٥٢ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٢١ .

والقرآن الكريم يصور هذا أو يشير إليه حينما يقول : « يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ، فَانفِرُوا ثُبَاتٍ[1] أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً » .

وهذا يُفهم منه أن الجنود يخرجون إلى المعركة بحسب الحاجة .

ولا يبعد عن هذا المجال ما شرعه القرآن الكريم من صلاة الحرب أو الجهاد ، فإن الصلاة فريضة مكتوبة على المسلمين : « إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » ولكن القرآن لم يُغفل عنصر الاحتياط فى صلاة الحرب ، فهو يعلمنا أن نقسم الجيش ، ففريقٌ يؤدى الصلاة على حين يكون النصف الآخر مرابطا أمام العدو ، ثم يذهب القسم الأول إلى المعركة ليجاهد ، ويأتى القسم الآخر ليصلى .

يقول القرآن الكريم : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا[2] » .

ولو جاء الزحف العام ، ولم يتمكن الجنود من الصلاة ، لأنهم فى حالة قتال أو التحام ، فإنهم يتركون الصلاة ، ويتفرغون جميعاً للمعركة ، فإذا انتهوا منها أدوا ما عليهم من فريضة : « فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ[3] » .

* * *

(١) أى جماعة وراء جماعة — سورة النساء آية ٧١

(٢) سورة النساء آية ١٠٢ .

(٣) سورة النساء آية ١٠٣ .

ومن العوامل المساعدة على الانتصار فى المعركة ، التحريض عليها ، والتحبيب فى الجهاد ، والدعوة إلى شرف الاستشهاد ، والقرآن العزيز فى هذا الباب يقول : « يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ[1] » .

ويقول محرضاً وداعياً إلى الجهاد : « وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ[2] » .

ويقول : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

ويقول : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ[3] » .

ويقول : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ »[4] .

ويقول : « فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ، وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ، الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا[5] » .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٥ . (٢) سورة النساء آية ١٠٤ .

(٣) سورة التوبة آية ٣٨ . (٤) سورة الأنفال آية ٢٦ .

(٥) سورة النساء آية ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .

ويقول مخاطباً الرسول : « فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا[1] » .

* * *

وقد يتصل بعامل التحريض عامل التقوية للروح المعنوية فى الجنود ، حتى يثبتوا ويطمئنوا ويثقوا بالنصر ، وقد عنى كتاب الله العزيز بهذه الناحية عناية ملحوظة ، فتارة يخبر الله عباده المؤمنين بأنه معهم ، وأنه ناصرهم ، وكاسر أعدائهم ، فيقول: « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ ، وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ[2] » .

وتارة يثير فيهم الحماسة والاعتزاز بأنفسهم ، والثقة بقوتهم ، وأنهم قادرون بإيمانهم على قهر أعدائهم ، ولو كان هؤلاء الأعداء كثيرين ، فيقول : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ[3] » .

وتارة يشعرهم بسمو مكانتهم ، وعلو منزلتهم ، ويهون عليهم ما يصيبهم من تعب أو ألم ، لأنهم عظماء ، وإن العظائم كفؤها العظماء كما يقول الشاعر العربى ، فيقول القرآن : « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ

---

(١) سورة النساء آية ٨٤ .

(٢) الأنفال آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤

(٣) الأنفال آية ٦٤ ، ٦٥ .

النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[1] » .

***

ومن عوامل النصر كما يصورها القرآن الثبات فى المعركة ، ولقد كان المؤمنون صابرين فى حروبهم ، ثابتين فى معاركهم ، ولذلك نالوا الفوز والنصر أكثر من مرة ، والله تعالى يقول فى هذا المجال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ[2] أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ[3] فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[4] » .

ويقول القرآن أيضاً : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[5] » . ويقول : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً ، كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ[6] » .

والقرآن الكريم فى مجال الحديث عن الصبر والثبات يركز أسبابَ النصر فى آية من آياته اختتم بها سورةَ آل عمران ، وهى قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[7] » .

فبدأت الآية بمخاطبة المؤمنين ، لنتذكر جيداً أن المجاهد يجب أن يكون مؤمناً بالقضية التى يجاهد فى سبيلها ، موقناً بالمبدأ الذى يكافح من أجله ، ثم أمرت الآية بالصبر : « اصبروا » . والصبر قوة نفسية تدفع صاحبها إلى الكفاح ، ومتابعة الجهاد ، ودوام النضال .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) أى مظهرا الانهزام خديعة للعدو .

(٣) أى منضما الى كتيبة من قومه ليقاتل معها متقويا بها .

(٤) سورة الأنفال آية ١٥ ، ١٦ .

(٥) سورة الأنفال آية ٤٥ .

(٦) سورة الصف آية ٤ .

(٧) سورة آل عمران آية ٢٠٠ .

ثم انتقلت الآية إلى الأمر بالمصابرة فقالت : « وصابروا » والمصابرة مغالبة للشدائد ، واتخاذ الوسائل لمعالجتها والتغلب عليها ، وقديماً كان أجدادنا يقولون كشعار لهم : « الغمرات ثم ينجلينا » ، والغمرات يراد بها المتاعب والشدائد ، أى إن الشدائد تمر بالرجال والأبطال ، فيحسنون استقبالها ، ويحسنون معالجتها ، ويحسنون التغلب عليها ، ويحسنون التخلص منها ، وترحل الغمرات ، ويبقى الرجال أقوياء أشداء كما هم .

ثم تنتقل الآية الكريمة إلى عنصر « المرابطة » ، فتقول : « ورابطوا » . والمرابطة هى سد الثغرات الموجودة أو التى قد توجد ، وإحكام الحراسة للحدود ومظان الهجوم ، وهذه المرابطة تحتاج إلى إعداد وتدريب وسلاح ، وإقامة على خطوط الدفاع ونحوها .

ثم تنتقل الآية إلى عامل له أهميته فى النصر ، وهو عامل التقوى ، فتقول : « واتقوا الله » . وتقوى الله تفيد تطهير النفس من الآثام ، والبعد بها عن أسباب الانهزام .

ثم تأتى النتيجة لهذا كله وهى : « لعلكم تفلحون » أى تكون عاقبة الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى هى النجاح والفوز والفلاح .

* * *

ومن عوامل النصر كما يصورها القرآن الكريم التحبيب فى الشهادة ، وتسهيل الموت فى نظر الجنود المجاهدين ، فالقرآن الكريم يقول : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ ، أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ[1] » .

---

(١) سورة النساء آية ٧٧ ، ٧٨

ويقول القرآن : « كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ[1] » .

ويقول : « وما كانَ لنفسٍ أنْ تموتَ إلّا بإذنِ اللهِ كتابًا مؤجلًا[2] » .

ويقول : « قلْ لوْ كنتمْ في بيوتكمْ لبرزَ الذينَ كتبَ عليهمُ القتلُ إلى مضاجعهمْ[3] » .

والقرآن يتحدث عن الشهادة أعذب الحديث فيقول : « إنَّ اللهَ اشترى منَ المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهمْ بأنَّ لهم الجنَّةَ ، يقاتلونَ في سبيلِ اللهِ فيقتلونَ ويُقتلونَ وعدًا عليهِ حقًّا في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ، ومَنْ أوفى بعهدِهِ منَ اللهِ فاستبشروا ببيعكمْ الذي بايعتمْ بهِ وذلكَ هوَ الفوزُ العظيم[4] » .

ويقول : « قلْ هلْ تربَّصونَ بنا إلا إحدى الحسنيينِ[5] ؟ ونحنُ نتربَّصُ بكمْ أنْ يصيبَكمُ اللهُ بعذابٍ منْ عندِهِ أوْ بأيدينا فتربَّصوا إنَّا معكمْ متربِّصونَ[6] » .

ويقول : « ولاَ تحسبنَّ الذينَ قتلوا في سبيلِ اللهِ أمواتًا بلْ أحياءٌ عندَ ربِّهمْ يرزقونَ ، فرحينَ بما آتاهمُ اللهُ منْ فضلِهِ ويستبشرونَ بالذينَ لمْ يلحقوا بهمْ منْ خلفِهمْ ألا خوفٌ عليهمْ ولاهمْ يحزنونَ ، يستبشرونَ بنعمةٍ منَ اللهِ وفضلٍ وأنَّ اللهَ لا يضيعُ أجرَ المؤمنينَ ، الذينَ استجابوا للهِ والرسولِ منْ بعدِ ما أصابهمُ القرحُ للذينَ أحسنوا منهمْ واتقوا أجرٌ عظيمٌ ، الذينَ قالَ

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٤٥ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٥٤ .
(٤) سورة التوبة آية ١١١ .
(٥) النصر أو الشهادة .
(٦) سورة التوبة آية ٥٢ .

لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قد جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيل ، فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُم سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذو فَضْلٍ عَظِيم[1] » .

وبجوار التحبيب فى الشهادة والتسهيل للموت ، يكون أيضاً التذكير بحسن العاقبة للمجاهدين فى الدنيا والآخرة . فالمجاهد فى سبيل الله — وهو سبيل الحق والعدل والخير — إما أن ينتصر فتكون له العزة فى الحياة . وإما أن يكون شهيدا فيكون له عظيم الثواب فى الدار الآخرة .

ولذلك يقول القرآن الكريم : « كُتِبَ عَلَيْكُم الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[2] » .

ويقول القرآن أيضاً : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ[3] فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَمَا ضَعُفُوا ، وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ، وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ، فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[4] » .

* * *

ومن عوامل النصر أيضاً أن نقضى على عوامل التخذيل ، بأن نبث قوة العزيمة ، ونحارب أشياع الهزيمة ، وأن نقطع الطريق على المخذلين ، حتى لا يقتربوا من المعركة ، أو يؤثروا فيها ، أو يشيعوا الشائعات حولها . ولقد حدثنا القرآن الكريم عن طائفة من المخذلين المعوقين كانوا على عهد النبي ،

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢) سورة البقرة آية ١٢٦ .

(٣) مؤمنون علماء .

(٤) سورة آل عمران آية ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

وكانوا إذا حضروا مجلسه تظاهروا بالطاعة والاستجابة ، فإذا خرجوا من عنده خالفت أعمالهم أقوالهم ، وهذا من الفتنة والفساد الكبير .

يقول القرآن الكريم فى هؤلاء : « وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ ، وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً »[1] .

ويقول القرآن الكريم عن فريق من غير المؤمنين : « وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ »[2] .

ويتحدث القرآن عن الذين يشيعون الفتنة ، ويبثون الإشاعات ، وينشرون أنباء المعركة لغير مصلحتها : « وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً »[3] .

ولا شك أن حالة الحرب تستدعى عدم التعرض لإذاعة الأنباء من غير المختصين بتلك الإذاعة ، فقد يكون النبأ سيئا ، ويلزم كتمانه لمصلحة المعركة ، وقد يكون الخبر أيضاً سارا ، ومع ذلك يلزم كتمانه فى بعض الأحيان لمصلحة المعركة كذلك ، فإباحة نشر الأنباء عن الحرب لغير المسئولين عنها يؤدى إلى أضرار وأخطار ، ولذلك نددت الآية الكريمة بأولئك الذين ينشرون الأنباء المختلفة عن المعركة وهم ليسوا مختصين بذلك ، وهؤلاء يجب منعهم ومحاربتهم .

وكذلك يقول القرآن الكريم عن المروجين للشائعات الناشرين للمفتريات فى أثناء المعركة : « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ

---

(١) سورة النساء آية ٨١ .

(٢) سورة النور آية ٤٧ .

(٣) سورة النساء الآية ٨٣ .

فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً ، مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ، سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً[1] » .

ومن الواجب على ولى الأمر أن يطهر المعركة فى ميدانها وخطوطها من هؤلاء المخذلين وأئمة الفتن والشائعات ، وهذا هو القرآن يحدثنا عن أمثال هؤلاء المفسدين ، فيقول عنهم فيما يقول : « وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ، لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ، يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ، وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ، لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ، وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : ائْذَنْ لِى وَلَا تَفْتِنِّى ، أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ، إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ، قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[2] » .

* * *

ومن عوامل النصر أيضاً أن نتحمل تبعات النصر ، لأن النصر يأتى عادة عن طريق معركة ، والمعركة لها ثمن ، وكل من الغالب والمغلوب يدفع فيها ثمنا ، فيجب أن نتذكر هذا ، وأن ندفع الثمن راضين ، وأن نتحمل تبعات المعركة مؤمنين بأن هذا اختبار وابتلاء ، وأن الصبر فى هذا المقام يؤدى إلى حسن العاقبة ، والله تعالى يقول : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

(٢) سورة التوبة آية ٤٦ — ٥١ .

مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ[1] » .

كما أن مما يتصل بهذه الناحية أنه يجب علينا أن نحسن استعمال النصر ، وأن نحسن استخدام ثمراته ، فالله جل وعلا يقول : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » فجعل العاقبة لمن آمن واتقى ، ولم يجعلها لمن يفجر أو يطغى ، ونشوة الظفر لها سكرة قد تؤدى إلى نتائج لا تفترق كثيراً عن الهزيمة ، إذا تجاوزت هذه النشوة حد العقل والحكمة إلى حد الغرور والطغيان ، ولذلك يقول القرآن الكريم أيضا : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[2] » .

***

ولابد لنا ونحن نتحدث حديث الجهاد والاستشهاد أن نخص حديث الشهادة بمزيد من العناية والتفصيل، لأن الجندى المرابط المؤمن المخلص المجاهد فى سبيل الله والوطن يقوم بعمل جليل شريف .

وأشرف ما يقوم به هذا الجندى فى عمله هو أن يدرب نفسه ، ويوطن ذاته على موقف البأس وموطن الشهادة يوم يدعو داعى الحمى إلى هذه الشهادة، وذلك بأن يتعلم الجندى « صناعة الموت » لا حباً فى الموت، ولكن حرصاً على العقيدة والحرية والعزة والكرامة .

فإذا ما أصبح الجندى مستعداً فى الحقيقة والواقع لكى يصنع الموت عندما يطلب منه الوطن هذا الموت ، صار هذا الجندى جديراً كل الجدارة بإحراز النصر لنفسه ، والحرية لبلاده ووطنه .

و « صناعة الموت » هذه — أو الشهادة كما يعبر الإسلام — ليست صناعة

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٥٥ — ١٥٧ .

(٢) سورة الحج آية ٤١

جديدة على مجتمعنا العربى المؤمن ، بل هى ميراث من مواريثنا الروحية والمعنوية والأدبية التى ورثناها عن آبائنا السابقين وأجدادنا الأقدمين .

فمنذ أقدم العصور كان العربِ الأصحاء الأقوياء يتغنون بالتضحية والموت فى سبيل العقيدة ، والشهادة من أجل المبدأ ، وهذا أحد شعرائنا يتحدث عن امرأته التى خوفته مواطن القتال ومظان الموت ، وحذرته المخاوف والمهالك ، فيقول :

بكرت تخوّفنى الحتوف كأننى أصبحت عن غَرض الحتوفِ بمعزل
فأجبتها : إن المنية منهل لابد أن أُسقى بذاك المنهل
فاقنى حياءك لا أبالك ، واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

نعم إنه سيموت إن لم يقتل ، وقد تعددت الأسباب والموت واحد ، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ، ومادام الموت مقدورا ، وما دام الأجل مستورا . وما دام الموعد الحق لنهاية الحياة غير محدد فى الظاهر ، فما أجدر الإنسان النبيل بأن يختار السبب الذى يموت به ، وما أجدره بأن يجعل هذا السبب شريفاً كريماً ، وطعمُ الموت فى شىء عظيم ، كطعم الموت فى شىء حقير ، كما يقول أبو الطيب المتنبى .

وإذا كان الحقراء من الناس يبحثون عن أحقر الأسباب وأهونها ليموتوا بها ، فإن الكرام العظام يبحثون عن أكرم الأسباب وأجلها ليموتوا بها ، وإن العظائم كفؤها العظماء :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وهذا هو الشاعر العربى الآخر يتحدث حديثاً بعيداً عن النفاق والمباهاة ، لأنه يتحدث بهذا الحديث إلى نفسه ، وإذا ناجى الإنسان نفسه صار بعيدا عن مواطن التكلف والافتراء ... إن الشاعر يقول لنفسه ما يثبتها به فى مواطن الحق والصدق ، ومجالات البأس والهول ، ومواقع الموت والهلاك ، إنه يقول :

أقول لها وقد طارت شَعاعاً من الأبطال : ويحك لن تراعى

فإنك لو سألتِ بقاءَ يوم   على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبراً فى مجال الموت صبرا   فما نيــل الخلود بمستطاع

وهكذا أقبل الإسلام على العرب فأذكى فيهم كل خلق شريف ، وأبقى بينهم كل عادة طيبة ، وأيد كل منهج سليم ، ولقد اختار الله أمة العرب لتكون أول المؤمنين برسالة الإسلام ، ولتكون أول أمة تحمل هذه الرسالة إلى العالمين ، وكان فى هذه الأمة خصالٌ وصفات ، منها الطيب ومنها المذموم ، فأيد الإسلام ما زكا وعلا ، وأصلح ما اعوج وانحرف . .

ولقد زكى الإسلام شرعةَ الشهادة فى سبيل الحق والعقيدة ، وعلم المؤمنين صناعة الموت فى سبيل المبدأ والواجب ، وذكرهم فى صلواتهم ومجتمعاتهم — عند تلاوة كتاب ربهم — أن صناعة الموت السامية صفة من صفات المؤمنين ، فقال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ [1] » .

فهذه الآية الكريمة تفيدنا أن المؤمن قد باع نفسه ، لم يبعها بالمال ، ولا بالأرض ، ولا بالمتاع ، ولا بالوظيفة ، ولكنه باعها لما هو أسمى من ذلك وأعلى ، باعها لبارئها وخالقها وهو الله جل جلاله ، وثمن الحياة هنا غال وعظيم ، إنه الخلود فى النعيم ، والبقاء الأبدى فى الفردوس ، « وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [2] » أى هى الحياة العظيمة الكاملة ، ولذلك يقول القرآن المجيد فى موطن آخر : « فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ [3] » .

***

---

(١) سورة التوبة آية ١١١ .
(٢) سورة العنكبوت آية ٦٤
(٣) سورة النساء آية ٧٤ .

ويأتى المعلم الأول والمصلح الأعظم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، الذى قاد العرب إلى ساحات الإيمان والعدالة والكرامة الإنسانية ، فيرسم للمسلمين أيضاً طريق الشهادة ، ويعلمهم كيف يصنعون الموت فى كل موطن شريف يحتاج إلى صناعة الموت ، وهو الذى يقول :

« والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أحيا ، ثم أقتل فأحيا ، ثم أقتل » .

وكأنه صلوات الله وسلامه عليه يريد أن تكون حياته سلسلة من تعاليم صناعة الموت لغيره ، وتتابعاً لذوق الشهادة فى سبيل ربه ، فما يكاد يؤدى ضريبة الشهادة فى معركة ، إلا ويتمنى العودة إلى معركة أخرى يذوق فيها طعم الشهادة مرة أخرى ، وهكذا دواليك حتى تنتهى حياته — صلى الله عليه وسلم — فى شهادات متوالية متتابعة ، وفى جهاد موصول مستمر ، حتى ينال أعلى الدرجات عند ربه : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (1) » . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ ، وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (2) » .

* * *

وللرسول صلوات الله وسلامه عليه فى فضل الشهادة ومكانة الشهيد مجموعة رائعة من الأحاديث ، يحسن بنا أن نسمع طائفة منها :

---

(1) العنكبوت آية ٦٩ .

(2) سورة الصف آيات ١٠ — ١٣ .

١ — « ما من عبد يموت له عند الله خير ، يسره أن يرجع إلى الدنيا ، وأن له الدنيا وما فيها ، إلا الشهيد ، لما يرى من فضل الشهادة ، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا ، فيُقتل مرةً ثانية » .

٢ — « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقى العدو فصدق الله حتى قُتل ، فذلك الذى يرفع الناس أعينَهم إليه يوم القيامة هكذا — ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته — ورجل مؤمن جيد الإيمان ، لقى العدو فكأنما ضرب جلده بشوك طلح من الجبن ، آتاه سهم غرب فقتله ، فهو فى الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملا صالحاً وآخر سيئا . لقى العدو فصدق الله حتى قُتل ، فذلك فى الدرجة الثالثة ، ورجل مؤمن أسرف على نفسه ، لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذلك فى الدرجة الرابعة » .

٣ — « يؤتى بالرجل من أهل الجنة ، فيقول الله : يابن آدم ، كيف وجدت منزلك ؟ . فيقول : يارب ، خير منزل . فيقول : سل وتمن . فيقول : أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات . . . لما يرى من فضل الشهادة » .

٤ — « ما يجد الشهيد من مسِّ القتل إلا كما يجد أحدُكم من مس القرصة » .

٥ — « عُرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة : شهيد ، وعفيف ، أو متعفف ، وعبد أحسن عبادةَ الله ، ونصح لمواليه » .

٦ — « قال رجل : يارسول الله ، أين أنا إن قُتلت ؟ قال : فى الجنة ؟ فألقى تمراتٍ كن فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل » .

٧ — « يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته » .

٨ — « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .

* * *

وكثير من الناس يظنون أن الشهادة فى الإسلام تقتصر على الشهادة فى معركة تقوم باسم الدين ، أو باسم نشر الدين ، وهذا خطأ كبير ، فالشهادة فى الإسلام تكون لإزالة باطل ، ولإحقاق حق ، ولإزالة أى عائق أمام الأمة المؤمنة التى تريد أن تعتز بحريتها وكرامتها ، ولا تقتصر الشهادة فى الإسلام على معركة بين مسلمين ومشركين ، وإنما تكون الشهادة فى كل موطن يكون فيه دفاع عن حرية أو وطن أو أهل أو مال .

ولست أقول هذا من عندى ، وإنما يقوله الصادق المصدوق محمد عليه الصلاة والسلام ، فهو القائل : « من قـُتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروعَ الأمثلة التطبيقية العملية لصناعة الموت أو الشهادة .

فقد قال الرسول قبيل غزوة بدر : « من قاتل فى سبيل الله صابراً محتسباً دخل الجنة » .

فيقول أحد الصحابة : أليس بينى وبين دخول الجنة إلا أن أقتل يارسول الله؟

فيقول له : « ما بينك وبين دخول الجنة إلا أن تأكل هذه التمرات التى بيدك ، ثم تخرج إلى المعركة لتقاتل فتـَقـْتـَل فتدخل الجنة » .

فيقول الصحابى : « لئن صبرتُ حتى آكلَ هذه التمرات إنها إذن لحياة طويلة » .

ويلقى التمرات من يده ، ويخرج إلى المعركة يجاهد فى سبيل عقيدته ومبدئه ، وهو يردد :

سعياً إلى الله بغير زاد إلا التـُّقى وعمل المعاد

ويأتى صحابى آخر إلى الرسول ، وهو يشكو عرجاً فى رجله لا يستطيع معه أن يصول كما ينبغى فى أرض المعركة ، ويطلب إليه أن يقبله بين المجاهدين ، فيجيبه الرسول :

« لقد وضع الله عنك كلفةَ الجهاد ، وليس على المريض حرج ، ولا على الأعرج حرج ! » .

فيقول الرجل معبراً عن صناعة الموت التى أتقنها وأحبها : يا رسول الله ، إنى أعلم أن الله قد وضع عنى الجهاد ، ولكننى أريد أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة ! . . . نعم يريد أن يطأ بعرجته هذه فى الجنة . . يا لروعة الجهاد ! ويا لحب الاستشهاد !

ويكرم الرسول هذه النزعة منه ، ويأذن له بأن يجاهد فى سبيل عقيدته ، مع أنه غير مكلَّف بها ، لأنه يعلم أنه مجاهد فى سبيل عقيدة ، إن انتصر فقد أعزها وعاش بها ، وإن مات فى سبيلها فقد ضمن له الحياة الباقية الخالدة .

وتمضى الأيام ، ونجد الخليفة الأول أبا بكر الصديق رضى الله عنه يعود إلى تعليم المسلمين صناعةَ الموت فى سبيل الله وسبيل الحق ، فيقول لأحد قادة المسلمين ، وهو خالد بن الوليد : « يا خالد ، احرص على الموت تُوهَبْ لك الحياة » . ومتى حرص الشعب على أن يموت فى سبيل عقيدته فلا بد أن يحيا حياة عزيزة كريمة .

ويأتى خالد بن الوليد فيرينا من صناعة الموت وحرصه على الشهادة فنونا وألوانا ، ومع ذلك لا يموت خالد فى معركة ، ولا بطعنة رمح ، ولا بضربة سيف ، بل يموت على فراشه ، ويعبر هو عن ذلك قُبيل موته ، فيقول :

« لقد شهدتُ سبعين زحفا أو زُهاءها ، وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » .

* * *

وقد يظن ظان أن هذه الصفة وهى صناعة الموت ، قد انطوى خبرها ، أو عفى أثرها ، أو أصبحت ماضيا نتذكره فقط ؛ وهذا غير صحيح ، فإذا كان هناك شهداء قد سقطوا فى معركة العدوان الثلاثى ، فإنما هم قد ضربوا بذلك أمثلة على أن روح الاستشهاد مازالت تنطوى عليها صدور هذه الأمة المؤمنة :

ونحن هنا نسأل : من الرواد الأوائل الذين يطالبهم الله ويطالبهم الحمى الغالى بأن يبدءوا بأنفسهم صناعة الموت ، أو صناعة الشهادة ، وأن يعودوا فيلقنوا غيرهم دروس الجهاد والاستشهاد ؟ . . من الطلائع الأولى التى تقف كالمصابيح والمنارات على الخطوط والحدود والثغور والربط ، لتقول :

هلموا إلى موطن العزة والكرامة ؟ ! . .

إنهم الجنود المرابطون ، فأول واجبهم ، بل أشرف أعمالهم ، بل أسمى أهدافهم ، بل أنبل غاياتهم أن يحملوا أرواحهم على أيديهم ، استعداداً لساعة يطلب منهم فيها أن يبذلوا هذه الروح كريمة فى سبيل أغلى مقصد ، وأشرف غاية .

فوصيتنا التى نتواصى بها إذن فى مجتمعنا المرابط المجاهد أن نتعلم صناعة الموت ، لا لنكون بغاة أو طغاة أو معتدين ، وإنما لنكون على استعداد وفى إعداد . فإذا ماحانت الساعة التى يطلب فيها البذل كنا كراما مساميح . فليكن شعار كل واحد منا قول الشاعر :

سأحمل روحى على راحتى ... وأمضى بها فى سبيل الردى

فإما حياةٌ تسر الصديق ... وإما ممات يسوء العدا

فلنعش حياتنا فى إعداد للجهاد ، وفى حب للاستشهاد ؛ وبذلك تكون هذه الحياة عزيزة كريمة ، تليق بالأعزة الأحرار ، ولينصرن الله من ينصره ؛ إن الله لقوى عزيز .

بطولة سماحة

إن السماحة الدينية لها أثرُها الكبير فى إشاعة السلام والوئام ، وفى تجلية القدوة الحسنة للمخالفين فى العقيدة ، ولعل التأثير الذى يأتى عن طريق السماحة يكون أقوى من التأثير الذى يأتى عن طريق التعصب .

وهناك فى تاريخنا الإسلامى شخصية كبيرة مشهورة ، لعلنا قرأنا القليلَ أو الكثير عن أعمالها فى مجالات السياسة والحكم والقوة ، ولكننا لم نقرأ شيئا ذا بال عنها فى مجال السماحة الدينية ، وهى شخصية أحمد بن طولون .

وأحمد بن طولون من أصل تركى ، ولد سنة ٢٢٠ هـ ، وكانت أمه جارية لأبيه تُعرف « بقاسم » ، ونشأ نشأة طيبة ، بعيدَ الهمة ، حسن الدين ، مترفع الخلق ، يألف أهلَ التقى ، ويحب الشجاعة والإقدام .

وتولى أمر مصر سنةَ أربع وخمسين ومائتين ، وأكثر فيها من الجند ، وبنى القطائع والقصور والأسواق ، ومد رواق العمران ، وأنشأ المساجد والعيون والمستشفيات ، وكان كريم اليد ، كثير العطاء ، وكان حسن الحيلة ، بارع التدبير ، عنيف الخصومة ، شديد العقوبة ، يرضى فيسرف فى الإكرام ، ويغضب فيُسرف فى التنكيل .

وأصيب ابن طولون فى آخر حياته بعلة البرد والهيضة ، فكان بلاءُ بطنه هذا سبباً فى انحراف نفسه ، وتغير خلقه ، حتى ارتكب أموراً تجاوز فيها صراط الحق والعدل ، وكان آخر عبارة قالها وهو يعالج سكرات الموت : « يارب ، ارحم من جهل قدر نفسه فأبطره حلمك عنه » .

ثم مات ليلة الأحد لعشر ليال خلون من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين .

ومن أمثلة سماحته الدينية ما رواه رهبان « دير القصير » ، وكان فى جهة

حلوان فى المكان المطل على الصحراء وعلى النيل ؛ وعلى القرية التى كانت معروفة باسم « شهران » ، وهى اليوم تعرف باسم « المعصرة » بين « طره » « وحلوان» « ودير القصير » مازال إلى اليوم عامراً ؛ قالوا :

كثيرا ما يطرقنا الأمير أحمد بن طولون ؛ ويخلو فى بعض قلالينا (جمع قلية وهى الصومعة تكون فى كنيسة النصارى) يفكر ، وكان يأنس براهب منا يقال له أندونة ؛ فشكونا إليه يوماً أمر ابن المدبّر صاحب الخراج بمصر ، وقلنا له : إنه يطالبنا بجزية رءوسنا ، وقد أسقطت عن أمثالنا على مر السنين .

فوقع إليه بخطه توقيعا ، وقال لنا : احذروا أن تجعلوا توقيعى هذا كالسيف الذى يصول به صاحبه ، ولكن استعملوا الاستكانة عند إيصالكم إياه إليه ، والمسألةَ ، وحسنَ التلطف . فعجبنا من قوله ، وصرنا إلى ابن المدبر ، وإذا به قد بلغه خبر التوقيع ، واستعملنا ما أمرنا به الأمير ، فأخذ التوقيع منا ، وبلغ بنا فوق ما نحبه .

* * *

ومن أمثلة عدالته أيضاً أنه أرسل أحدَ قواده ليجمع الخراج ، فاغتصب القائدُ من راهب خمسمائة دينار ، إذ قيل إن هذا الراهب يملك كنزاً ، فبكى الراهب وحزن ، فأشير عليه بأن يذهب إلى الفسطاط ، ويكتب قصته ويقدمها لابن طولون ، فإنه « أمير عادل منصف » .

ففعل الراهب ذلك ، فبصر به حاجبُ ابن طولون ، وكان الحاجب صديقاً للقائد الظالم ، فسأل الحاجب ذلك الراهبَ عن حاجته ، فقص عليه القصة ، فخشى الحاجب تأديب ابن طولون لصاحبه ، فدفع للراهب خمسمائة دينار بدلا عن القائد ، واسترضاه ، فرضى وعاد إلى بلده .

وعلم بعضُ الناس بالحادثة فأبلغوها ابن طولون ، فأحضر القائدَ والحاجب والراهب ، ثم قال للراهب : كان سبيلك — ويلك — أن تدعى عليه أى على القائد ، بثلاثة آلاف دينار ، حتى آخذها لك منه ، وأجعل ذلك تأديباً له ولغيره . .

ثم قال للحاجب : والله لولا أنها مكرمة سارعتَ إليها ، وجميل رغبت فيه ، وقال الله عز من قائل : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » لعمرت بك المُطْبق (وهو السجن) ، ولكن احذر أن تعاود مثلها ، ولا تستبد بأمر تأتيه دون أن تعرِّفنا به ، ولا تطو عنا خبراً ، ولا سرا ، ولا قصة ترفع .

فقال الحاجب : أقلنى أيها الأمير أقالك الله ، فوالله لا أعود لمثلها أبدا .

قال : فانصرف إلى موضعك .

ثم التفت ابن طولون إلى القائد وقال له : أفى رزقك تقصير عن مئونتك ؟

قال : لا .

قال : أتأخر عنك استحقاقك تأخيراً يضطرك إلى ما أتيته ؟ .

قال : لا .

قال : فبأى حال استحللت أن تأخذ من هذا البائس الضعيف ما تقطع به قلبَه ، وتُبكى عينه ، وتفقره وأهله ؟ . ألك حاجة أوجبت ذلك عليك ، أو ضرورة دعتك إليه ؟ ... المطبق[1] !! . وأمر بسجنه فى المطبق .

وذكر المسعودى فى « مروج الذهب » أنهم حملوا إلى ابن طولون رجلا معمرا من الأقباط ، فى سنة مائتين وستين ونيف ، كان بأعالى بلاد مصر من أرض الصعيد ، وكان ممن يُشار إليه بالعلم من لدن حداثته ، والنظر والإشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم ، فأحضر له أحمد بن طولون من حضره من أهل الدراية ، وصرف همته إليه ، وأخلى له نفسَه فى ليال وأيام كثيرة ، يسمع كلامه وإراداته وجواباته فيما يسأل عنه ، نحو سنة ، فأجازه وأعطاه ، ورده إلى بلده مكرما .

ولقد بنى ابن طولون عينا ليس لها نظير ، وقام ببنائها له رجل نصرانى حسن الهندسة حاذق فيها ، يسمى سعيد بن كاتب الفرغانى ، وهو الذى تولى

---

(١) أى انصرف إلى سجن المطبق فورا .

أيضاً بناء مقياس النيل والصهريج — بل وجامع ابن طولون نفسه — ولما ذهب ابن طولون بنفسه إلى العين بعد إتمامها وقف بجواره فى أرض رطبة كان فيها جير لم يجف ، فساخت أقدام الفرس ، فتطير ابن طولون ، واعتقد أنها مؤامرة من النصرانى فسجنه .

و بعد مدة تبين لابن طولون أن يعفو عن هذا النصرانى ، وأن يستعين به فى بناء الجامع ، فأحضره وكلفه العمل قائلا : أنفق وما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك . ولما تم النصرانى المسجد بصورة رائعة ، وجاء ابن طولون لرؤيته ، صعد النصرانى المنارة وصاح : أيها الأمير ، عبدك يريد الجائزة ، ويسأل الأمان ألا يجرى عليه مثل ما جرى فى المرة الأولى فأمره ابن طولون بالنزول فقال : وحق رأس الأمير لا نزلت أو تؤمننى .

فقال : انزل فقد أمنك الله ، ولك الجائزة .

فنزل وأمر له بعشرة آلاف دينار ، وخلع عليه ، وأجرى عليه رزقا واسعاً .

واتخذ ابن طولون لنفسه طبيباً نصرانياً هو سعيد بن توفيل ، وكان يصحبه فى أسفاره ، ويأتمنه على صحته وحياته ، ويوصيه إسحق بن إبراهيم بأن يخلص فى علاج الأمير المريض ، فيقول : « ويحك ، أنت حاذق فى صناعتك ، فارِهٌ فيها (أى مجيد) وليس لك عيب إلا أنك مُدِلّ بها غير خاضع لمن تخدمه بها ، والأمير — وإن كان فصيح اللسان — هو أعجمى الطبع ، وليس يعرف أسبابَ الطب ومقدار صناعته ، فتدل فيها عليه ، فيحتمل ذلك لمقدار محل الطب والحاذق فيه ، وقد أفسده أيضاً إقباله عليك ، فالطف به وارفق به ، وداوره ، وخاطبه من حيث يشاء ، واخدمه كما يختار ، وواظب على أمره ، واحتمل شيئا إن جرى منه ، فإن احتمالك يثنيه عما لعلك تنكره » .

ولما دخل ابن طولون دمشق ، وقع بها حريق فى بعض بيوت النصارى عند كنيسة يسمونها « كنيسة مريم » فركب ابن طولون إلى مكان الحريق ، ومعه أبو زرعة المصرى وأبو عبد الله أحمد بن محمد الواسطى كاتبه .

فقال ابن طولون لأبى زرعة : ما يسمى هذا الموضع ؟ .

فقال : كنيسة مريم . .

فقال الواسطى : أكان لمريم كنيسة ؟ . .

قال : ما هى من بناء مريم ، وإنما بنوها على اسمها .

فقال ابن طولون : مالك والاعتراض على الشيخ ؟ . ثم أمر بسبعين ألف دينار من ماله ، وأن يعطى كل من احترق له شىء ، ويقبل قوله ولا يستحلف ، فأعطوه لمن ذهب ماله ، وفضل من المال أربعة عشر ألف دينار .

ولما اشتدت العلة بابن طولون طلب من الناس أن يدعوا له ، فخرج المسلمون بالمصاحف إلى سفح الجبل ، وتضرعوا إلى الله فى أمره .

ولما رأى النصارى واليهود ذلك من المسلمين خرج الفريقان : النصارى بالإنجيل ، واليهود بالتوراة ، وفى أيديهم حزم الآس ، وفى أيدى شمامستهم البخور ، يبخرون ببخورهم الذى يتبركون به .

واجتمعت الجماعة كلها فى سفح الجبل ، واعتزل كل فريق منهم على حدة يدعون الله ، ويتضرعون إليه فى شفاء الأمير .

هذه طائفة من صور السماحة الدينية التى تبدت فى حياة الحاكم المشهور أحمد بن طولون ، ولاشك أن فيها عظة وبلاغا للذين يريدون أن يكونوا أمثلة لمكارم الأخلاق فى هذه الحياة . .

بطولة أريحية

كلما تطلعت عيني إلى حاضر الناس المليء بالدنايا والصغائر، الملوث بالأغراض والشهوات، المحشود بالحرص والطمع، والتكالب على اللذات، أحسست بخسة بعض الأحياء وصغار بعض الأنفس، وخيل إلى أن الدنيا قد تبدلت وتغيرت، فانحطت بعد ارتفاع، وسمجت بعد رونق وبهاء، وكأنما غمس بعض البشر في ماء منتن آسن، فخرجوا منه وحوشاً ضارية، وأفاعي خبيثة، وجراثيم دنيئة.

وكلما رجعت بعقلي وقلبي إلى التاريخ، وانتقلت بعين خيالي إلى الماضي، واستعرضت حياة الذين سلفوا من الأجداد، وطالعت صفحات مفاخرهم ومآثرهم وأمجادهم ومحامدهم، أحسست أني أرتفع عن مستوى الطين الملوث وأتنقل في آفاق عالية سامية، كلها سناء وسنا، وذكاء وحجا، وبر وتقوى، وإيمان وهدى، وارتياح للجميل، وحرص على المكرمات، واستمساك بالفضائل، وفناء في الخير. وتضحية بالجليل، مما يخيل لقصير النظر أو ضعيف الهمة أن هذا من ضروب الخيال، وما هو من الخيال، ولكن الحال غير الحال.

إليك مثلا من هذه الأمثلة العالية التي يحار أمامها الجنان والبيان والبنان:

ذكروا عن جود عبيد الله بن معمر أن رجلا من أهل البصرة كانت له جارية نجيبة أديبة حبيبة، فاقت في كثير، وقعد الدهر بسيدها حتى أعدم[1] وقدم عبيد الله البصرة، فقالت الجارية لسيدها مخلصة: إني أريد أن أذكر لك شيئاً أستحي منه، إذ فيه جفاء مني، غير أنه يسهِّل عليَّ ذلك ما أرى من ضيق حالك، وقلة مالك وزوال نعمتك: هذا ابن معمر قد علمتَ شرفه وفضله وسعةَ كفِّه،

(١) أي افتقر.

وجودَ نفسه فلو عرضتنى عليه هدية رجوت أن يأتيك من مكافأته ما تقوى به وتتسع يدك !..

وبعد جدال قبل مرغما ، وذهب بها إلى ابن معمر يعرضها عليه هدية ، فقال : مثلى لا يستهدى مثلك (لغناى وفقرك) ، فهل لك فى بيعها ، وأجزل لك الثمن عليها حتى ترضى ؟ ... أيقنعك منى فيها عشرة آلاف درهم ؟

فقال : ياسيدى ، والله ما امتد أملى إلى عُشر ماذكرت ، ولكن هذا فضلك المعروف وجودك المشهور !.. ثم أخذ المال ودنا منها ليودعها بإذن سيدها الجديد فقالت :

هنيئاً لك المال الذى قد أصبته ولم يبق فى كفىّ إلا تفكرى
أقول لنفسى وهى فى كرب عيشة أقلىّ ، فقد بان الحبيب ، أو اكثرى
إذا لم يكن للأمر عندكِ حيلة ولم تجدى بدًّا من الصبر فاصبرى

فدمعت عيناه وتذكر ماضيه معها فقال :

أنوح بحزن من فراقك موجع أقاسى به ليلاً بطول تفكرى
ولولا قعود الدهر بى عنك لم يكن يفرقنا شىء سوى الموت فاعذرى
عليك سلام الله ، لازَوْرَ بيننا ولاوَصلَ ، إلا أن يشاء ابنُ معمر

فقال عبيد الله بن معمر : قد شئتُ ذلك ، فخذ جاريتك ، وبارك الله لك فى المال !.. فأخذ الرجل جاريته التى أحبها وأحبته ، وعادا غنيين ، فاستأنفا ما كانا فيه من حياة كلها حب وجمال !.

هكذا كان الرجال يوم كانت الدنيا ، وهكذا كانت الأريحية يوم كانت الحياة تضم نماذج عليا من الرجال ، يهون عليهم كل شىء فى سبيل صنائع المعروف ، ويضحون بكل شىء فى سبيل إغاثة ملهوف ، أو إسعاد مكروب ، أو تأمين خائف ، أو إعانة محتاج ... أما اليوم فحديثه معلوم ، فما هو بحاجة إلى تبيان !.

بطولة مكارم الأخلاق

مكارم الأخلاق قوة نفسية تمنع صاحبها من ارتكاب ما يُستقبح، وتدفعه إلى التحلي بما يجب وينبغي، وقد عرّف القدماء الخُلق بأنه «هيئة للنفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر أو روية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعاً بسهولة، سُميت الهيئة خُلقاً حسنا، وإن كان الصادر عنها أفعالا قبيحة سميت الهيئة خلقاً سيئاً».

وكأنما أرادوا من ذلك أن يقولوا: إن الخُلق لا يكون خلقاً حتى يصير كالطبع والسجية، لا يظهر به صاحبه تكلفاً أو منافقة، بل يلتزمه فى إيمان ويقين.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى لمكارم الأخلاق. وتحلت فيه هذه المكارم، كأنها عنصر من طبيعته، وجانب من ذاته، ونشأ منذ أدرك ملتزماً هذه المكارم، متحلياً بفضائل الأعمال، متباعداً عن رذائل الأمور، وعرف قومه ذلك منه قبل أن يحمل لواءَ الرسالة، فوصفوه «بالوفى الأمين»، وأثنوا عليه بما هو أهله.

ولما أوقدوا نار العداوة بينهم وبينه لم يستطيعوا أن ينكروا عليه أخلاقه السامية، وشهدوا له بذلك فى موقف مشهود يوم الفتح، حين قال لهم وهم أعداؤه الذين فعلوا به وبقومه الأفاعيل: ماتظنون أنى فاعل بكم؟. قالوا: خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء!..

وجاء القرآن الصادق المصدوق، فسجّل لمحمد شهادته العاطرة الباقية، وأعطاه لواءَ الحمد بين المتجملين بمكارم الأخلاق: فقال له ربه فى كتابه: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ».

وقال : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ، وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرا[1] » .

وتحدث الرسول بنعمة ربه عليه ، حين جمَّله بالأدب الرفيع ، وجعله مثلاً اسمو الطباع ، وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق ، فقال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وقال : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

والرسول هو المثل العملى الأول الذى تتحقق فيه مبادئ الإسلام ، فإذا كانت رسالته شبهَ محصورة أو مقصورة على تتميم المكارم ، فإن أولى الناس بتجلى هذا التمام الخلقى فيه هو الرسول ، وكذلك كان ! . .

ولم يقتصر الرسول على تجميل نفسه بمثالية الأخلاق الكريمة ، بل جاهد جهاد الصدق ليغرس أصول الأخلاق الفاضلة فى نفوس أصحابه وأتباعه ، وليجعلهم كالملائكة يمشون بين الناس مطمئنين ، هادين بأقوالهم وأعمالهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، وهو القائل للمسلم : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالِق الناسَ بخلق حسن » .

ولقد قيل له : أى المؤمنين أكمل إيماناً ؟ .

فقال : أحسنهم خلقاً .

وكان الرسول صلوات الله عليه وسلامه يحرص على أن يوصى أصحابه بمكارم الأخلاق فى كل فرصة مواتية . وهذا معاذ يقول : أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يامعاذ ، أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجوار » ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقِصَر الأمل ، ولزوم الإيمان ، والتفقه فى القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح ،

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١ .

وأنهاك أن تسب حكيما ، أو تكذّب صادقا ، أو تطيع آثما ، أو تعصى إماما عادلا ، أو تفسد أرضا ، وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة : السر بالسر ، والعلانية بالعلانية » ! . .

وجاء رجل إلى الرسول وقال له : يا رسول الله أوصنى .

فقال : « عليك بالجهاد ، فإنه رهبانية المسلمين ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ، فإنه نور لك فى الأرض ، وذكر لك فى السماء ، واخزن لسانك إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان » ! . .

وهو يحفظ لمكارم الأخلاق هذه المكانة الرفيعة — لا فى الدنيا وحدها — بل فى الآخرة دار الخلود ، فقد سألته زوجته أم سلمة ذات يوم عن المرأة تتزوج رجلا بعد رجل فى الدنيا ، فمن يكون زوجها فى الآخرة ؟ .

فقال لها النبى : « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهما خلقا ، يا أم سلمة ، ذهب حسن الخلق بخيرى الدنيا والآخرة » .

كما يخبرنا الرسول أن مكارم الأخلاق هى التى ترفع رتبةً المسلم فى الجنة درجاتٍ فوق درجات ، ولذلك قال : « أقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً » .

وقال : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » .

والرجل المتحلى بمكارم الأخلاق يعجبه أن يرى هذه المكارم متجلية فى غيره ، فهو يقدرها ، وينوه بها ، ويرعى لصاحبها مكانته ويثنى عليه بالذى هو خير ، ولما كان رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى لمكارم الأخلاق نراه ينشرح صدره وتقر عينه إذا رأى مكرمة تبدو من إنسان ، وينوه بالخلق الحسن ولو تجلى فى غير مسلم . فقد روت السيرة أن بنت حاتم طيءٌ وقفت بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم وهى أسيرةُ حرب ، فقالت له : « يا محمد ، إن رأيت أن تخلى عنى ، ولا تُشمت بى أحياء العرب ، فإنى بنت سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العارى ،

ويقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا بنت حاتم طيء » .

فأعجب الرسول صلوات الله وسلامه عليه بحديثها ، وقال لها : « يا جارية ، هذه صفة المؤمنين حقا ، لو كان أبوك مؤمنا لترحمنا عليه » :

ثم قال لقومه : « خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارِمَ الأخلاق ، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق » ؟ ! .

فقام أحدُ الصحابة وتساءل فى إعجاب قائلا : « والله يحب مكارم الأخلاق » ؟ ! .

فقال الرسول : « والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق » .

***

والمتتبع لسيرة محمد صلوات الله عليه وسلامه يجد أن مثالية الأخلاق الكريمة قد صارت فى ذاته وحياته حقائقَ ووقائع ، فهو فى سلمه وحربه ، فى رضاه وغضبه ، فى بيته ومجتمعه ، فى أصحابه وأعدائه ، مثل ، فريد للشخصية الكاملة المحصنة بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال .

وها هم أولاء أتباع محمد عليه الصلاة والسلام يقبسون على مر الأيام وتوالى العصور من أضواء الأخلاق المحمدية ما يهديهم طريقهم السوى فى الحياة ، وما يزيدهم ارتباطا وإعجاباً بذلك الرسول النبيل الجليل .

ولله در « شوقى » حين يخاطب الرسول مصورا جوانب من أخلاقه النبوية ، فيقول فيما يقول :

يا مَنْ له الأخلاقُ ما تهوى العلا ... منها ، وما يتعشق الكبراءُ
لو لم تقمْ دِيناً لقامت وحدها ... دينا تضىء بنوره الآناء
زانتك فى الخلق العظيم شمائلٌ ... يُغرَى بهن ويولع الكرماء
وإذا رحمت فأنت أم أو أبٌ ... هذان فى الدنيا هما الرحماء

وإذا غضبت فإنما هى غضبة — فى الحق ، لا ضغن ولا بغضاء
وإذا قضيت فلا ارتياب ، كأنما — جاء الخصوم من السماء قضاء
وإذا ملكت النفسَ قمت ببرها — وَلوَ‌ان ما ملكت يداك الشاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته — فجميع عهدك ذمة ووفاء

***

أما بعد ، فإن العالم اليوم يتعرض لمحنة الأخلاق أشدّ مما يتعرض لأى محنة غيرها ، بل قد تكون محنة الأخلاق فى العالم مبعثا لمحن كثيرة غيرها ، فإذا أراد الناس أن يسعدوا حقا فى هذه الحياة ، فإن عليهم أن يستمسكوا بعروة الأخلاق الفاضلة والشيم العالية ، وإذا تطلب هؤلاء نبراسا هاديا فى هذه السبيل ، فأمامهم نبى الرحمة ورسول الأخلاق محمد عليه الصلاة والسلام ، ففيه القدوة والأسوة ، وفيه المثل الأعلى لمكارم الأخلاق .

بطولة حليم

علمنا صخبُ الدنيا ، ولغب الحياة ، واشتجار المصالح ، وتكالب النفوس على المنافع ، أن نكون حِراصاً على ما فى أيدينا أشحاء به ، ولو كان فى بذله أداءُ الحقوق ، أو كسب المكرمة ، أو دفع المذمة ، وأن نكون غِضابا تثور لأتفه الأسباب ، ونسارع إلى مُنكر القول من السباب ، وكم من مشكلات وأزمات تملأ مجتمعنا اللاهث الأنفاس ، من جراء هذين العيبين : الحرص والغضب .

وقديماً كان السابقون من أسلافنا الأمجاد يحذرون هذين العيبين كل الحذر ويرونهما مسبة للرجولة ، ومذلة للعقل ، ولو شئنا استقصاء الأمثال لاتسع المجال ، وامتد المقال ، فحسبنا من البحر ليدل عليه قطرة ، ومن الروض ليرشد إليه زهرة :

هذا هو معن بن زائدة الشيبانى المتوفى سنة إحدى وخمسين ومائة ، كان أميراً على سجستان ، وكان أحد الأبطال والأجواد ، وكان مضربَ المثل فى الصبر والحلم والرزانة ، حتى ليحسب بعض الغافلين أن هذا منه ضعف وهوان ، وإنما هو كرم وإحسان .

من دلائل كرم معن أن راكبا على ناقته أقبل نحو بيته ، فقال معن لخادمه : لا تحجب هذا ، فلما مثل الراكب بين يديه أنشد :

أصلحك الله ، قلَّ ما بيدى   فما أطيق العيالَ إذ كثروا

أناخ دهر علىَّ كلكله   فأرسلونى إليك ، وانتظروا !

فاهتز معن طربا ، وأخذته أريحية الأصيل الكريم ، وكان غنيا مكثارا . فقال للرجل : والله لأعجلن أوبتك إليهم ! . وأعطاه مائة ناقة وألف دينار !

وجاءه الشاعر مروان بن حفص ، وأنشده قصيدة يمدحه فيها ومنها قوله :

معن بن زائدة الذى زيدت به شرفا على شرف بنو شيبان

فأعطاه على تلك القصيدة مائة ألف . ومن دلائل رزانته وحلمه أن أعرابياً دخل عليه يحاول إغضابه وإثارته لحاجة فى نفسه . وكأنما لمح معن منه هذا ، فأراد أن يعطيه درساً فى الصبر على سفاهة السفهاء . فكان بينهما الحوار التالى :

قال الأعرابى لمعن وهو جالس على سرير إمارته :

أتذكر إذ قميصك جلد كبش وإذ نعلاك من جلد البعير

وفى يمناك عكاز طويل تهش به الكلاب عن الهرير

أجاب معن وهو مطمئن هادىء : نعم أذكر ذلك ولا أنساه .

عاد الرجل محاولا إثارة معن فقال له :

فسبحان الذى أعطاك ملكا وعلمك الجلوسَ على السرير

فأجاب معن : بحمد الله لا بحمدك ! . . فقال الأعرابى :

فأقسم لا أحييك ابن معن مدى عمرى بتسليم الأمير

قال معن : إذن والله لا أبالى ! .

فقال الأعرابى :

فمر لى يابن ناقصة بمال فإنى قد عزمت على المسير

فقال معن لغلامه : أعطه ألف درهم .

فقال الأعرابى :

قليل ما أمرت به ، وإنى لأطمع منك بالشىء الكثير

فما تغير معن عن صبره وحلمه على الرغم من كل هذا ، بل بالغ فى الإبانة عن كرم نفسه فقال لغلامه : زده ألف درهم . فقال :

ملكت الجود والإنصاف جمعا فبذل يديك كالبحر الغزير

فقال معن : ياغلام ، ضاعف له الحساب ! .

سلام عليك يا معن بن زائدة فى كرام الخالدين . .

بطولة عزة

عزة النفس خلق يتحلى به المرء إذا كان كريم الطبع نبيل المحتد، فيترفع به عن مواطن الذلة وأعمال الصغار، ويدخل به فى زمرة الأماثل الأعزاء الذين يرضى عنهم ربهم، ويدخلهم فى مفهوم قوله عز من قائل: « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ[1] »

ولعل أول حقيقة من حقائق عزة النفس أن تكون للإنسان شخصيته المستقلة، وذاتيته المتميزة، يؤمن بالشيء فيلزمه، ويحرص عليه، ويتمسك به ويدافع عنه، ويعرف قبح أمر من الأمور، فيكون أول المنتهين عنه، النافرين منه، ويعرف جمال أمر من الأمور فيتحلى به، ويلجأ إليه، لا يرجع فى ذلك الانتهاء أو الالتجاء إلى رأى الناس، أو إقبالهم، أو إدبارهم، فكم شاع بين الناس باطل، وكم ضاع بينهم حق.

ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يعطينا فى ذلك الباب درسا عميقا دقيقا، من تدبره على وجهه انتفع به فى مواطن كثيرة من مواطن الخير والبر، وساحات الصلاح والإصلاح.. يقول صلوات الله وسلامه عليه: « لا يكن أحدكم إمعة[2]، يقول إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم، إذا أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم ».

وما دام الحق سبحانه قد خلق الإنسان فسواه فعدله، فوهب له العقل والتفكير والتمييز، وجعله حراً، له ما كسب، وعليه ما اكتسب، ولا يحمل إلا مافعل، ولا يسأل إلا عما ارتكب، فمن مخالفة السنن الطبيعية ومن التنكر للنعم الإلهية،

---

(١) سورة المنافقون آية ٨.

(٢) الإمعة الشخص الذى لا رأى له، بل يتابع غيره فى الرأى.

ومن الهضم للكرامة الإنسانية — أن يترك الإنسان هذه الحرية إلى عبودية يفرضها عليه سواه فى جسمه أو فهمه .

ولذلك رأينا عمر الفاروق يستنكر على عمرو بن العاص وولده استعلاءهما على الناس ، وظهورهما بمظهر السادة على العبيد ، مع أن الكل خلق الله ، وهم كأسنان المشط فى الاستواء ، فيقول عمر لعمرو : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟ .

بل نرى عمر بن الخطاب من قبل ذلك بسنوات يعز عليه أن يرى الحق مهيضَ الجناح ، على حين أن الباطل يتنمر ويستأسد ، وأن يرى الإسلام مرغما على التخفى والاستتار ، فى حين أن الكفران مُـلِحٌ فى المجاهرة والاستعلان ، فتأخذه عزة المؤمن ، ويقول فى ثورة الموقن : « يارسول الله ، ألسنا على الحق وهم على الباطل » ؟

ويجيبه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « بلى » .

فيقول عمر ناسيا ما هناك من ظروف تستوجب هذا الاستتار الموقوت : « فعلام نعطى الدنيةَ فى ديننا ؟ » .

ويقوى المسلمون الأولون بإسلام عمر ، ولا يبقى لعمر مكان جلس فيه بالكفر إلا جلس فيه بالإيمان ، وتظهر عزة الإسلام فى أهليه السابقين حين يخرجون إلى الناس وعلى رأسهم أستاذهم الأول محمد عليه الصلاة والسلام ، فيكون هذا الخروج عنواناً من عناوين العزة المؤمنة ، ويستحق عمر بذلك أن يلقَّب بلقب « الفاروق » .

ولم لا يكون للفاروق هذا الشأن فى باب عزة النفس ، وهو الذى يصور تلك العزة تصويراً رائعاً فى كلمات قصيرة وجيزة ، ولكنها بليغة شافية ، يقول رضوان الله عليه : « يعجبنى من الرجل إذا سيم خُطَّةَ خسفٍ أن يقول : (لا) بملء فيه » ! .

* * *

والناظر فى صفحات التاريخ الإسلامى يرى للصدر الأول من رجالات الإسلام مواقفَ تزدان بهذه العزة العالية ، الدالة على سمو النفس وشرف الهمة ، فهذا أبو بكر الصديق يتولى خلافة المسلمين ، ويصبح راعيا لهم ، ويصبح أبو سفيان فرداً من أفراد رعيته ، وأبو سفيان هو الذى كان وكان قبل الإسلام ؛ كان سيداً فى قومه ، عزيزاً فى ناديه ، عالياً بعصبيته ، مستعلياً بأسرته ، ولم يبكِّر بالإسلام .

وذات يوم كان أبو بكر يراجع أبا سفيان أموراً أتاها ، وكانت تلك المراجعة بما لأبى بكر من حق الخلافة والولاية والرعاية ، وأقبل والد أبى بكر « أبو قحافة » وهو مكفوف ، وسمع صوتَ ابنه يعلو فى المراجعة والنقاش ، فقال لقائده : على من يرفع ابنى عتيقٌ صوته ؟.

فقال له : على أبى سفيان .

فأقبل على ابنه يعاتبه فى ذلك ، وكأنه لا يزال يخشى بأس أبى سفيان على أبى بكر ، فإذا أبو بكر يصوِّر عزةَ النفس وعزة الإسلام فيقول :

« يا أبتاه ، إن الله أعزَّ بالإسلام قوما ، وخفض به آخرين » ! .

ولا عجب فأبو بكر قد تخرَّج فى مدرسة النبوة التى تعلِّم ابنها كيف يكون عزيزا من دور الصبا وطور الفتوة ، فها هو ذا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يدخل بيت الصدقة ومعه الحسين بن على وهو صبى ، فيأخذ الحسين تمرة من تمر الصدقات ، فيأمره النبى أن يلقيها بعد أن لامست شفتيه ، ويقول له : « إنا أهل بيت لا تحل لنا الصدقة » ، وهذا تحبيب نبوى كريم فى العزة وسمو الهمة .

وإذا ما انطوت نفس المرء على هذه العزة هانت فى نظره أعراض الحياة ، ولم تفتنه لذة ، ولم تؤنسه شدة ، وها هو ذا الإمام الشافعى ينشد وهو العزيز الأبى :

أمطرى لؤلؤا سماء سرنديـ ـب وفيضى جبال تكرور تبرا

أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همـــة الملوك ونفسى نفس حر ترى المذلة كفرا

وإذا ما فقد الإنسان هذه العزة فى نفسه فهو والحيوان الأعجم سواء :

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد !

اللهم هب لنا أمن عصمتك ، ورعاية عزتك ، فأنت رب العزة والجبروت وأنت أكرم مسئول ، وأفضل مأمول .

بطولة رجولية

يهل علينا كل سنة نور المحرم ، وهو الشهر الحرام ، وفاتحة العام ، وأول السنة الهجرية ، وله ذكرياته وعظاته ، ولطائفه ونفحاته . وفى العاشر من هذا الشهر سنة إحدى وستين من الهجرة استشهد سبطُ الرسول ، وريحانته من الدنيا ، وأبو الشهداء ، وسيدُ شباب أهل الجنة : الحسين بن على رضى الله عنهما .

وقصة استشهاده صفحة دامية من صفحات التاريخ الإسلامى ، وما بنا من حاجة إلى إثارتها من جديد ، فما أحوج تلك الجراح المثخنة إلى أن نمسح عليها بيد التغافل والنسيان ، حتى لا ننكأها أو نعيدها جذعة !. ولكننا بحاجة إلى أن ننتهز الفرصةَ فنستعرض من حياة الحسين مواقفَ رائعة ، فيها نبل ورجولة ، وإباء وشمم ، وسمو وعلو ، وذكرى لقوم يعقلون ، « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

فى بيت النبوة الطاهر ، وحنان « محمد » العظيم ، ورعاية « على » الوالد المؤمن ، ورحمة « فاطمة » الأم البتول الزهراء ، نشأ الحسين على الطهارة والنقاء ، والبركة والصفاء ، والعلم والتقوى ، والبر والهدى .

وكيف لا يكون كاملا وعينه لا تقع على قبيح ، ويده لا تمتد إلى مكروه ، وهناك عينُ النبي عليه الصلاة والسلام ، تلحظه وترقبه ، فتمنعه من الدنية ، وتحببه فى الرفعة ، حتى لقد حدث أن صعد الحسين وهو صغير إلى غرفةِ صدقاتِ المسلمين ، فأخذ منها تمرةً ، ووضعها فى فمه ، فرآه النبي فغضب منه ، وكره له ذلك ، وقال : « ألقها ! . . فإنها لا تحل لنا الصدقة » ! . . .

وبهذا الإباء علم محمد أهله أن يترفعوا عن الصغائر ، وأن يجعلوا أيديهم

عليا فلا يمدوها إلى صدقات الناس ، ولا يُذلوا رقابَهم لمعروف غيرهم ، وعليهم ألا يتخذوا النبوةَ متجراً أو مغنما ، بل عليهم أن يكسبوا قوتهم بعرق جبينهم ، وأن يكونوا سباقين فى ميادين العمل الشريف والكفاح المشكور ، بدلا من أن يتكففوا الناس ويسألوهم ، أعطوهم أو منعوهم !.

ولكن هذه الرفعة النفسية والسمو الخلقى ما كانا ليمنعا الحسين عن التواضع حين يحسن التواضع ، وما كانا ليدفعاه إلى الزهو والكبرياء ، بل هو يضرب القدوة من نفسه فى دماثة الخلق وسهولة الطباع ، فقد مر ذات يوم على بعض المساكين من أهل الصُّفة ، وهم يأكلون طعامهم القليل المتواضع فى الصفة وهى ناحية من المسجد النبوى ، فقالوا له : « الغداء يا بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! . .

فقال : إن الله لا يحب المتكبرين ! . .

ثم نزل وجلس وتغدى معهم كأحدهم ، وقضى معهم زمناً ، ثم قال لهم قولة الرجل الجواد الذى يسلك إلى الإحسان خيرَ سبيل وأجمل طريق : قد أجبتكم فأجيبونى ! . .

قالوا : نعم ! .

فمضى بهم إلى منزله ، وقال لخادمته الرباب : أخرجى لهؤلاء ما كنت تدخرين ! . . وكأن الحسين رضى الله عنه قد أراد بذلك الا يحرج أولئك المساكين ، أو يجرح شعورهم ، أو يمس كرامتهم ، فقبل دعوتهم أولا ، ثم أغدق عليهم ما عنده أخيراً ، لتعتبر هذه فى مقابل تلك ، فليتعظ بذلك أولئك الذين يتظاهرون أسوأ التظاهر بإحسانهم ، والذين يفتخرون بصدقاتهم ، مع أن الحق يقول . « قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ [1] » .

* * *

وكان الحسين رجلا مسماحاً معطاء ، لا يستكثر ما يتفضل به مهما كان عظيما ، وكذلك شأن المطبوع على الجود ، المفطور على السماح والعطاء ، فقد

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣٦ .

دخلت عليه ذات يوم جارية من جواريه ، وفى يدها طاقةُ ريحان وزهر ، فقدمتها إليه هديةً منها ، فسرّ من صنيعها ، وأراد أن يكافئها ، فلم يملك نفسه أن قال لها : اذهبى فأنت حرة لوجه الله تعالى ! .

فاغتاظت جارية أخرى فقالت له : أتجيئك جارية يا سيدى بطاقة ريحان فتعتقها ؟ .

فأجاب : كذلك أدبنا الله ، قال تبارك وتعالى : « وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا(١) » . وكان أحسن منها عتقها ! . .

* * *

وإليكم موقفاً آخر من مواقف الحسين ترونه فيه نبيلا يغفر الذنب ، ويعفو عن الزلة ، ويستجيب لهواتف الجميل ، وتأسره الكلمة الطيبة ، فتنسيه غضبه وألمه ، فقد وقع بينه وبين أخيه لأبيه محمد بن الحنفية خصومة أنشأت بينهما هجرا ، فكتب محمد بن الحنفية إلى الحسين يقول :

« أما بعد ، فإن أبى وأباك رجل واحد ، هو على بن أبى طالب ، لا تفضلنى فيه ولا أفضلك ، وأمى امرأة من بنى حنيفة ، وأمك فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو ملئت الدنيا بمثل أمى لكانت أمك خيرا منها ، فإذا قرأت كتابى هذا فأقدم على حتى تترضانى ، فإنك أحق بالفضل منى ، والسلام » ! . .

يشير بذلك إلى قول الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام (أى أن الذى يسعى إلى الصلح أولا هو الأفضل) .

فما كاد هذا الخطاب الوجيز يصل إلى الحسين حتى نسى غضبه ، وغفر لأخيه ذنبه ، ولم يجلس حتى أتى أخاه محمد بن الحنفيه فأرضاه وأكرمه ، وتلك شيمة الأكرمين السمحاء « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » ! . .

ومثل ذلك ما روى أنه وقع بين الحسين وأخيه الحسن ذات يوم كلام ، فقيل للحسين : ادخل على أخيك (لتسترضيه) فهو أكبر منك ! .

---

(١) سورة النساء آية ٨٦ .

فقال الحسين : إنى سمعت جدى صلى الله عليه وسلم يقول : أيما اثنين جرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة ! . . وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر ! . فبلغ قوله أخاه الحسن ، فأتاه عاجلا فأرضاه ! . .

* * *

كم من رجال فينا يحتاجون أشد الاحتياج إلى أن يقفوا طويلا أمام هذا الهدى الكريم . والإرشاد القويم ، ليأخذوا منه لأنفسهم رادعاً يردعها حينما يخلقون من الحبة قبة ، ويثيرون نيران الحفيظة أو البغضاء ، من جراء كلمة جافة ، أو تعبير شديد ، فإذا ما دعوا إلى خطة الصفاء والإخاء ، أعرضوا واستكبروا استكبارا ! .

هذا . ولقد كان الحسين بن على واعظاً بليغا ، أثرت عنه حكم فى غاية من البلاغه والتأثير ، استمع إليه إذ يعظ فيقول :

« لا تتكلف ما لا تطيق . ولا تتعرض لما لا تدرك ، ولا تعد بما لا تقدر عليه ، ولا تنفق إلا بقدر ما تستفيد ، ولا تطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت ولا تفرح إلا بما نلت من طاعة الله ، ولا تتناول إلا ما رأيت نفسك له أهلا » ! . .

وفى هذه الكلمات القصار وضع الحسين البليغ لكل مسلم دستور الخلق الكامل والعمل الصالح لحياة السعادة والهناء ! .

واستمع إليه إذ يحبب الناس فى الإحسان إلى المحتاجين ومعاملتهم بالمعروف والحسنى ، وينفرهم من لؤم النفس وشحها بالخير على أهله . فيقول : « اعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم ، فلا تملوا من تلك النعم فتعود نقما ، واعلموا أن المعروف يكسب حمدا ويعقب أجرا فلو رأيتم المعروف رجلا لرأيتموه رجلا جميلا يسر الناظرين ، ولو رأيتم اللؤمَ رجلا لرأيتموه قبيحَ المنظر ، تنفر منه القلوب ، وتغض دونه الأبصار » ! .

* * *

ولا تحسبن الحسين يرسلها كلمة لا يلتزمها ، ولا يأخذ نفسه بحدودها ، كلا ، بل هو أول من ينفذ ذلك المبدأ ، ويرى أن الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ، ويعتقد أن قضاء الحاجات لأصحابها يساوى العبادةَ والقنوت ، فهذا رجل يأتى إلى الحسن يستعين به فى حاجة ، فيجده معتكفا ، فينصرف إلى الحسين ، فيسارع الحسين إلى قضائها قائلا : « لقضاء حاجة فى الله عز وجل أحب إلىَّ من اعتكافى شهرا ! » .

تعلموا أيها الناس ، وإذا تعلمتم فانتفعوا بما تتعلمون ، وخذوا دروسَ الرجولة والمروءة ، والسماحة والجود ، من أولئك الغر الميامين ، الذين أذهب الله عنهم الرجسَ وطهَّرهم تطهيرا ، وإذا أردتم أن تعبروا عن حبكم لرسولكم وأهله وصحابته ، فاجعلوا هذا الحبَّ قدوةً حسنة ، واتباعاً جميلا ، فإن المرء على دين خليله ، وما من حبيب إلا وهو متشبه بخلال من يحب ! .

رضى الله عن الحسين ، فقد كان رجلا عظيما ، وبطلا كريما ، وعنوانا على الصفوة المصطفاة ، من أوائل السابقين فى الإسلام ، فعليه من ربه السلام ! .

بطولة مروءة

من قصص التاريخ الإسلامى

شاع بين الناس خلق الخيانة والغدر ، فالصديق يخون صديقه ، ويكيد له فى الظلام ، ويوقع به من وراء ستار ، وربما لا تقتصر خيانته على المال أو الجاه ، بل قد يخونه فى عرضه أو شرفه ، والتاجر يخون من يعامله ، فيغشه فى السلعة ، ويقبل منه الربح الفاحش الحرام ، والشريك يخون شريكه مع أن الله ثالثهما مالم يخونا . فإذا خانا خرجت يد الله ، وجاءت يد الشيطان ، والموظف يخون واجبه ، فهو لا يقوم بما وُكِلَ إليه من أعمال . ولا يتقى الله فيما وضع بين يديه من أمانات ، بل كلُّ همه البحث عن الترقية أو العلاوة أو الراحة .

وهناك نوع جديد من الخيانة ، لعله أخبث أنواعها وأدخلها فى باب الإجرام والقحة ، ذلك النوع هو أن يتطلع الصديق إلى زوجة صديقه الذى ائتمنه ، أو جاره الذى اطمأن إليه ، أو مواطنه الذى اتصل به ، فيعجبه جمالها فيتغافل عن صوت الضمير ، ويخون عهد الشرف ، ويغدر بذمة الصداقة والجوار ، ويذهب فينصب شباكه ويدس دسائسه ، حتى يوقع بين الزوج وزوجته ما يفرق بينهما ، ثم يقبل بعد ذلك إقبالَ الثعلب الماكر فيلهو بها أو يعيش معها ! .

ولا تحسبن أن هذه الجريمة نادرةِ الوقوع ، بل هى شائعة هنا وهناك ، نقرأ أخبارها بين الحين والحين ، فى المآسى والمخازى والفضائح التى تنشرها الصحف والمجلات عن الأسر والعائلات ! .

وهناك فى طيات التاريخ الإسلامى قصة تصلح عظة وعبرة فى هذا المقام[1] . إذ تنهض شاهداً بيناً على صدق المثل القائل : « من صنع كيدا لأخيه وقع فيه » !

(١) إنما يعنينا هنا ما فى القصة من عظة وعبرة ، والبحث التاريخى مجال آخر .

وهأنذا أجلوها لأذكر بها ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، ولأعرض صفحة مطوية من قصصنا التاريخية تصل الخلف المتوثب بأسلافه الغر الميامين :

سهر يزيد بن معاوية ذات ليلة من الليالى ، وعنده وصيف اسمه (رقيق) من حاشية معاوية المقرّبين . فقال يزيد « يعنى أباه معاوية » : أدام الله بقاء أمير المؤمنين وعافاه ، لقد كنت أعرف من عنايته بى ، وجميل نظره إلىَّ ما يمنعنى من طلب أمنية أو رجاء شىء ، ولكنه أضاعنى أخيراً ، وترك النظر فى شأنى ، مع ما يعلم من هيبتى له وخشيتى منه ، فالله يجزيه عنى بإحسانه ، ويغفر له ما اجترح من نسيانه ! .

فقال الوصيف : وماذا أهمل أميرُ المؤمنين من حقوقك ؟ إنك تعرف تفضيله لك ، وحرصه عليك ، فاذكر بلاءه واشكر حباءه[1] فإنك لا تبلغ شكره إلا بعون الله ! . فأطرق يزيد إطراقَ الحزين النادم . فقام الوصيف ودخل على معاوية ليلا — وكان غير محجوب عنه — وأخبره بما قال يزيد . فتأثر معاوية وأرسل إلى ابنه ليزيل شكواه ، فلما دخل عليه قال له : يا يزيد ! ما الذى أضعنا من أمرك ، وحسن النظر لك حتى قلتَ ما قلت ، مع أنك تعرف رحمتى بك ، ونظرى فى الأشياء التى تصلحك قبل أن تخطر ببالك فقد قدمتك على الناس كلهم . ووليتك إماماً على أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم فهلا شكرت النعمة ، وعرفت حق الأبوة ؟

قال يزيد وقد خنقه الحياء وشمله العرق : ما جحدت فضلك ، ولا أنكرت أبوتك . وإنى لأجد فيك الراعى الشفيق والوالد الرحيم ، ولكنك تعلم أن أفضل ما يرزق الإنسان بعد الإسلام هو الزوجة الصالحة ، وقد تحدث الناس جميعهم عن جمال « زينب بنت إسحاق » التى سطع جمالها وشاع ، فأحببتها ورغبت فى زواجها ، وظننت أنك ستسارع إلى جمع شملى بشملها ، فما زلت

---

(١) الحباء : بمعنى الكرم والإعطاء .

أنتظر ذلك حتى تزوجها عبد الله بن سلام ، وحاولت السلوان أو التصبر فما استطعت ، ولما عيل صبرى ، وعظم ذلك فى صدرى بحت بسرى ! .

فقال له معاوية : مهلا يا يزيد ! فأجابه متحسراً : وعلام تأمرنى بالمهل وقد انقطع منها الأمل ؟ فقال له معاوية : فأين حجاك ومروءتك وتقاك ؟ فأجابه: قد يغلب الهوى على الصبر والحجا ! فطمأنه معاوية بأنه سيحتال له فى زواجها مهما كان الثمن !

* * *

وأخذ معاوية الداهية الخبير ينصب الشرك المحكم ، لينال صيده المشتهى ؛ إذ كانت زينب بنت إسحاق مثلا فريداً بين أهل زمانها فى الجمال والكمال والشرف وكثرة المال ، وكان زوجها عبد الله بن سلام مقربا إلى معاوية ، وكان واليا من قبله على العراق ، فكتب إليه معاوية : أن أقبل حين تنظر فى كتابى هذا لأمر حظك فيه كامل ! .

فلما حضر عنده أنزله معاوية منزل العطف والإكرام ، ثم قال لأبى هريرة وأبى الدرداء وكانا عنده بالشام : إن الله أوجب على عباده شكر النعم ، وقد حبانى منها عز وجل أعز الشرف ، إذ جعلنى أمينا فى بلاده وحاكما على عباده ، ليبلونى أأشكر آلاءه أم أكفرها ، وإن أول ماينبغى للمرء أن يعنى به أمر بيته وأهله ، وقد بلغت لى ابنة أريد تزويجها بمن يكون لها كفئا ونظيرا ، وقد رضيت لها عبد الله بن سلام لدينه وفضله ومروءته ، فاذكرا له ذلك عنى ، وقد كنت جعلتُ لابنتى الشورى فى زواجها ، ولكنى أرجو ألا تخرج عن رأيى إن شاء الله ! . .

فحمد أبو هريرة وأبو الدرداء لمعاوية هذا السلوك عن نية خالصة ، وقاما ليخبرا عبد الله بن سلام بذلك الشرف الجديد .. وأراد معاوية أن يتم نصب الفخ المحكم فدخل على ابنته وقال لها : إذا جاءك أبو هريرة وأبو الدرداء وخاطباك فى تزوجك بعبد الله بن سلام فقولى لهما : إنه كفء كريم ، وقريب حميم ، ولكنه

متزوج بزينب بنت إسحاق ، وأنا أخشى غيرة النساء ، فإن شاء زواجي فليطلقها قبل ذلك . . .

فلما جاء أبو هريرة وأبو الدرداء إلى عبد الله وأخبراه بما يريد أمير المؤمنين فرح واغتبط ، وحمد له هذا التشريف ، وطلب إليهما أن يعجلا بالعودة إلى معاوية خاطبين ففعلا ، فقال لهما معاوية : ادخلا على ابنتي وانظرا ما تقول . فلما دخلا إليها أجابت بما علمها إياه أبوها ، فعادا إلى عبد الله وأخبراه ، فلما رأى أن الحائل بينه وبين بنت معاوية الحاكم هو زوجته طلقها في مجلسه ، وأشهدهما على طلاقها ، وبعثهما خاطبين مرة ثانية ، فأعلما معاوية بما كان من فراق عبد الله لزوجته ، فتظاهر معاوية بالكراهية لذلك والغضب منه ، وقال : ولم طلقها ؟ . إني ما أحب ذلك ! . . . فانصرفا في سلامة الله ثم عودا إلينا بعد حين لتأخذا إن شاء الله رضانا بذلك ! . . . وأرسل معاوية إلى ابنه يزيد يخبره بما كان من طلاق زينب بنت إسحاق التي سرحها زوجها بلا ذنب أو جريرة ، فبلغ السرور بيزيد مبلغه .

ثم ذهب أبو هريرة وأبو الدرداء إلى بنت معاوية الأمير وطلبا منها رأيها ، فقالت كما علمها أبوها : إن الزواج أمر خطير ، فاتركاني قليلا كي أتدبر أمري ، وأسأل الناس عن حال زوجي ، ولا داعي للتعجيل ، فإن الله ولي التدبير ، وسأعلمكما بما يأتيني من الله في أمره ، ولا قوة إلا بالله ! . فلما أعلما عبد الله بذلك تمثل وقال :

فإن يكُ صدرُ هذا اليوم ولى ... فإن غداً لناظرِه قريبُ !

* * *

وشاع خبر المكيدة بين الناس ، وعرفوا أن معاوية الداهية قد خدع عبد الله حتى طلق زوجته منه ليأخذها ليزيد ابنه ، وتحدثوا بذلك ، فاستحث عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء ليفرغا من أمره ، فذهبا إلى ابنة معاوية ، وقد أوصاها بأن تجيب بالرفض والامتناع ، فقالت لهما : لقد استشرت فيه الناس فمنهم الناهي عنه ، ومنهم الناصح به ، وقد كرهت والله اختلافهم ، فرأيت الابتعاد عنه ! .

وما كاد هذا الرد المؤيس يصل إلى عبد الله بن سلام حتى علم أنه قد خدع فاشتد به الهم، وبلغ منه الحزن مبلغه، ولكنه عاد فانتبه، وعلم أنه لا راد لما أراد الله، ولا مغير لقضائه أو قدره، فحاول السلوان! . إن كان لمثله أن يسلو!.

ومرت الأيام يتبع بعضها بعضاً، والناس يتناقلون هذه القصة فى الأمصار ويتحدثون بها فى الأسمار، ويكيلون لمعاوية التقريع واللوم، وهو يقول: والله ما خدعته!. حتى انتهت عِدّة زينب، فاستدعى معاوية أبا الدرداء وكلفه أن يتوجه إلى العراق كى يخطب زينب لابنه يزيد، فخرج أبو الدرداء حتى قدم العراق، وبها يومئذ الحسين بن على سيد أهلها فقها وحالا وجودا رضى الله عنه. فقال أبو الدرداء فى نفسه: والله إن أول ما يجب على ذى الحجا، والمعرفة والتقى، هو أن أبدأ فأزور ابنَ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيدَ شباب أهل الجنة يوم القيامة، فلست بناظر فى شىء قبل الذهاب إليه والتسليم عليه، والنظر إلى وجهه الكريم، ثم أفعل بعد ذلك ماجئت له...

فسار حتى أتى الحسين، فلما رآه الحسين قام إليه، فصافحه إجلالا له، ومعرفة لمكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وموضعه من الإسلام، ثم قال الحسين: مرحباً بصاحب رسول الله وجليسه!. يا أبا الدرداء، لقد أحدثت لى رؤيتك شوقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوقدت مطلقات أحزانى عليه، فإنى لم أر منذ فارقته أحداً كان له جليساً، وإليه حبيباً، إلا هملت عيناى، وتحرقت كبدى أسى عليه وصبابة إليه، ووالله إنى لذو حرص عليك، ومشوق إليك!... فقال أبو الدرداء: جزى الله حاجة أقدمتنا عليك، وجمعتنا بك خيراً، لقد وجهنى معاوية إلى هنا كى أخطب لابنه يزيد زينب بنت إسحاق!.

فصمت الحسين هنيهة مفكرا ثم قال: يا أبا الدرداء، لقد كنتُ فكرت فى زواجها، والإرسال إليها عقب انقضاء عدتها، ولم يمنعنى من ذلك إلى الآن إلا استشارة مثلك، وقد أتى الله بك إلى، فإن شئت فاخطب — رحمك الله — لى

وله ، ولتختر هى من شاءت ، وإنها لأمانة فى عنقك ! . فقال أبو الدرداء : حباً وكرامة ، أفعل إن شاء الله ! :

ثم توجه أبو الدرداء إلى زينب فقال لها : أيتها المرأة ، إن الله خلق الأمور بقدرته ، وكونها بعزته ، فجعل لكل أمر قدراً ، ولكل قدر سبباً ، وقد كان ما كان من فراق عبد الله بن سلام إياك ، وقد خطبك أميرُ هذه الأمة ، وابن الملك ، وولى عهده ، والخليفة من بعده : يزيد بن معاوية ، كما خطبك ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابنُ أولٍ من آمن به من أمته[1]، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة ، وأنت تعرفين مكانة كل منهما ، فاختارى منهما من تشائين . .

فقالت : يا أبا الدرداء ، لو جاءنى هذا الأمر وأنت بعيد عنى لجئتك مستشيرة ، فكيف وقد سعيت إلى ؟ . فاختر لى أنت أرضاهما لديك ، والله شهيد عليك ! . فقال : أى بنية ، ابن بنت رسول الله أحب إلى وأرضاهما عندى ، والله أعلم بخيرهما لك ، وقد كنت رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعاً شفتيه على شفتى الحسين ، فضعى شفتيك حيثُ وضعهما رسول الله ، فقالت بلا تردد : قد اخترته ورضيته ! .

ولم تمض أيام حتى عقد عليها الحسين بن على ، وساق إليها مهرا عظيما ، ولقى معاوية جزاء خديعته ، فضاع منه الصيد الذى نصب الشرك لإيقاعه فيه ، وذلك جزاء المكر والإيقاع ! .

* * *

ولكن القصة لا تزال فيها بقية ، هى أقوى عظة وأشد تأثيرا ، وأدعى لتحريك عواطف الشهامة والنبل فى نفس كل ذى قلب وروح . .

---

(١) يقصد أباه عليا ، ومراده أن عليا هو أول من أسلم من الفتيان ، لأن خديجة باتفاق الآراء هى أول من أسلم ، ولم يسبقها رجل ولا امرأة ، ولا صغير ولا صغيرة .

كان عبد الله بن سلام قد ترك عند زوجته بدرات مملوءة دراهم هى أعظم ماله ، وأحبه إليه ، فلما عزله معاوية ، وقطع معونته عنه بعد تلك الحادثة ، وأصابه من الفقر ما أصابه ، ذكر ذلك المال ، وأراد أن يسترده ، ولكنه كان يخشى أن تنكره زينب لسوء معاملته لها ، إذ طلقها بغير شىء أنكره منها فقدم العراق ، ولقى الحسين بن على ، وسلم عليه ، ثم قال له : لقد كنت استودعت زوجتى قبل فراقها مالا عظيما ، وكان الذى كان ، والله ما أنكرت منها فى طول صحبتها كبيرا ولا فتيلا ، ولا أظن بها إلا ظنا جميلا ، فمرها ترد هذا المال إلى إن شاءت . .

فذكر الحسين لزينب ذلك فقالت : صدق والله ، لقد استودعنى مالا لا يزال مطبوعا بطابعه ، ما أخذ منه شىء ، وها هو ذا فادفعه إليه ! . فقال الحسين : بل يدخل عليك لتسلميه إليه كما سلمه إليك ! . ثم ذهب إلى عبد الله وقال له : قم ، وادخل عليها لتستوفى مالك . فخجل وقال : هلا أمرت بإحضاره إلى ! . فقال الحسين : لا بد من دخولك عليها حتى تسلمك المال ، وتبرئ منه ذمتها . . فدخل . .

وهنا التقى الحبيبان القديمان ، ورجع الماضى كله بمسراته ومباهجه ، ومرت الذكريات الجميلة تباعا على خاطر الزوجين المفترقين ، واحتشدت العواطف من الندم على الذنب ، والوفاء للعشير ... وهنا رقت القلوب ، وتلاقت الأرواح ، فإذا عبد الله يبكى بكاء النادم الذى فرط فى أعز ما يملك ، وأغلى ما يعرف فى دنياه ، وإذا بزينب تبكى بكاء الزوجة المسكينة حينما ترى زوجها الذى ذاقت معه حلو العيش ، وعرفت بجانبه طيب المقام ، ومع ذلك طلقها بلا ذنب منها . .

وإذا بعبد الله يأخذ من الدر حثوات يلقيها بين يديها كما يفعل اليائس القانط ، ويقول وهو يبكى : خذى ، فهذا والله قليل منى إليك ، فوالله مارأيت منك إلا خيرا ، وليت الماضى يعود ، ولكن هيهات !.. وإذا ببكائهما يعلو ويرتفع ، وإذا بالحسين يدخل عليهما وقد سمع نحيبهما ، وعرف أمرهما ، ورق لحالهما ، فيقول : ياعبد الله ، أشهد الله أنها طالق ثلاثا ، اللهم إنك تعلم

أنى لم أتزوجها رغبة فى مالها ولا جمالها ، ولكنى أردت إحلالها لزوجها الذى طلقها ، قاصدا بذلك وجهك وثوابك . فا كتب لى على ذلك الأجر ، وأجزل لى عليه الذخر ، إنك على كل شىء قدير ! ! .

وبعد قليل عادت زينب [1] إلى زوجها السابق عبد الله بن سلام ، وأبى الحسين أن يأخذ قليلا أو كثيرا مما ساق إليها فى مهرها ، على الرغم من إلحاحها وإلحاح زوجها عليه فى أن يقبل ذلك ، واكتفى بهذه اللذة الروحية التى يشعر بها النبيل حينما يكبت طغيان الطاغى ، ويرد الحق إلى نصابه ، وينصف المظلوم ويجمع بين الأليف وأليفه باسم الله وعلى ملة الصادق رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولا عجب فهو سليل بنت محمد ، وفرع هذه الشجرة الزكية التى يقول فيها الحق عز من قائل : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا [2] » . صدق الله العظيم .

(١) فى كتاب « الإمامة والسياسة » يذكر اسمها « أرينب بنت اسحاق » وفى بعض الكتب الأخرى « زينب بنت إسحاق » .
(٢) سورة الأحزاب آية ٣٣

بطولة الفروسية فى الاسلام

لقد طبع الإسلام الشبابَ على حياة الفروسية وأخلاق الفتوة ...
والفروسية فى الأصل هى المهارة فى ركوب الخيل والخبرة بشئونها ، ولكن معناها العرفى اتسع حتى صار يشمل طائفة من الصفات فى الجسم والعقل والنفس ، وتكمل الفروسية بأمور ، هى : القوة فى الجسم ، والصحة فى المعرفة ، والعمق فى الفهم ، والرقة فى الحس ، والطهر فى النفس ، والحذق فى التصرف ، والاطمئنان عند الغرم ، والتواضع عند الغنم ، والثقة بالخالق ، والخدمة للمخلوق .

وقد رمز القرآن الكريم إلى أصول هذه الأمور حينما قال يصف النبى والمؤمنين معه : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ، فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (١) » .

فهم أشداء أقوياء بفتوتهم وعدتهم ، يصدون الكافرين عن الضلال والطغيان ، وهم رحماء بينهم ، يعاملون بمكارم الأخلاق من يستحقها . والرحمة صفة تقتضى رقة فى الحس ، وأدباً فى النفس ، وتراهم راكعين ساجدين متعبدين ، يصقلون أرواحهم بهذه الصلاة ، وتلك المناجاة مع الله ، وهم يرجون الرضا والثواب من الخالق الوهاب ، وترى ملامح التقوى على وجوههم ، لأن طهارة الداخل تُفيض أنوارها على الظاهر ، فيبدو حسناً رائعاً ، وهم كالزرع إذا نما ، وقوى واستوى ، وأعجب الزراع بكثرته وقوته وجمال منظره ، وهم مؤمنون محسنون ، يعملون الصالحات ، ويجتنبون

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩ .

السيئات ، فيحمد الناس لهم طباعهم وفعالهم ، ويجزيهم ربهم بالخير العميم والأجر العظيم .

فهذه الصورة التى رسمها القرآن لمحمد وصحبه ، تتضمن تحريضاً على العناية بتربية النفس تربية قويمة ، فيها من مبادىء الفروسية صفات القوة والتماسك ، والرحمة والتواضع ، والثقة والإيمان ، والتزام الطهر والعمل الصالح والخلق الكريم .

وحينما قال الله لرسوله : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ[1] » أراد من هؤلاء المؤمنين أن يحققوا فى أنفسهم ما يجعلهم أهلا لتلك الغلبة الفذة والانتصار الفريد ، من التربية العسكرية ، والإقدام على التضحية ، وإتقان الجهاد ، والثبات فى مواطن اليأس ، والتمسك بمبادىء الفروسية الإسلامية التى لا يذلُّ صاحبُها ولا يَخْزَى ، وهو فى الوقت نفسه لا يضل ولا يطغى ..

***

ولقد خص الإسلام فروسية الشباب بمزيد من عنايته ، فحث أبناءه على تعلم السباحة ، والرماية ، وركوب الخيل ، وغير ذلك من ألوان الفتوة الرياضية ، وشرع السباق فى العدو ، وبين الفرسان على الخيل أو الإبل ، واشترك النبى صلوات الله وسلامه عليه فى هذا ، حيث تكرر منه مسابقته لزوجته السيدة عائشة ، ووضع الرسول لهذه المسابقات نظماً وتفاصيل ، وعود صحابته التواضع عند النصر ، مع الاستعداد للتحدى ، فعن سلمة بن الأكوع الصحابى قال :

بينما نحن نسير ، وكان رجل من الأنصار لا يُسبق أبدا ، فجعل يقول : ألا مسابق إلى المدينة ؟ هل من مسابق ؟ .

فقلت : أما تكرم كريما ، وتهاب شريفا ؟ .

قال : نعم ، إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٥ .

قال : قلت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، ذرنى أسابق الرجل .

فقال : إن شئت .

فسبقته إلى المدينة ! .

* * *

ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسه القدوة العليا لكل فتى فارس ، فقد كان سيد الفتيان وإمام الفرسان . . . كان قوى البدن ، مفتول العضل ، نشيط الحركة . يقول أبو هريرة : « ما رأيت أحدا أسرع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشيه ، كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنجهد أنفسنا ، وهو غير مكترث » .

وكان جريئا مقداما . . . فزع أهل المدينة ليلة من صياح سمعوه ، فخرجوا يستطلعون النبأ ، فإذا هم يجدون رسول الله عليه صلوات الله وسلامه راكبا جوادا عاريا لأبى طلحة ، وقد سبقهم إلى الصوت ، وعرف جلية الأمر ، ورجع يطمئنهم قائلا : لن تراعوا ! .

وصارع محمد أشدّ العرب بأسا ، كركانة بن عبد يزيد ، وكلدة بن أسيد ؛ ففاز وغلب دون مباهاة أو فخر ، وثبت فى مواطن البلاء ، حتى احتمى به فرسان قومه دون طغيان أو كبرياء ، وهو مع هذا — كما يقول القرآن الكريم — رءوف رحيم .

وقد علم صحابته العناية بالخيل ، لأنها من وسائل الفروسية ، وقال : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

والقرآن يزكى هذه العناية حين يقسم بالخيل الجارية المجاهدة ، المغيرة على باطل الكفر ، المثيرة تراب الهزيمة على الشرك ، فيقول : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ [1] » .

وعلم أتباعه حياة الإعداد والاستعداد ، والتأهب للنوازل والملمات بالسلاح

---

(١) سورة العاديات الآيات ١ — ٦ .

والعتاد؛ فقال: «تُعْرَضُ أعمال بنى آدم كلَّ اثنين وكل خميس؛ فمن زاد فى سلاحه زيد فى حسناته، ومن نقص من سلاحه نقص من حسناته».

والقرآن يزكى هذا بقوله الجليل: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ»(١).

وإعداد المستطاع من القوة هو شعار الفرسان، ومنهج الكملة من الفتيان.

* * *

إن الفروسية الكاملة معناها الاستقامة على طريق القوة والعدل والخير، وهذا هو منهج الإسلام فى الحياة.

يقولُ الله تعالى مخاطباً عباده المسلمين: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ(٢)»:

ويقول لهم بعد أن يوصيهم بمحامد الأعمال، ومكارم الأخلاق: «وأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٣)».

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠.

(٢) سورة آل عمران آية ١١٠.

(٣) سورة الأنعام آية ١٥٣.

بطولة الثبات على المبدأ

الثبات على المبدأ لون رائع من ألوان الإيمان بالعقيدة ، واليقين بالفكرة ؛ والإنسان إذا تحلى بهذه الفضيلة استهان بلقاء المصاعب ومعاناةِ الشدائد ، بل قد يجد فى الألم لذةً ، وفى التعب راحة ، ما دام يرضى ضميره ، ويصون عقيدته ومبدأه .

وقد يعيش فى الدنيا فقيراً ويموت فقيراً ، ولكن يد الله التى لا تُغلَب ترفع له ذكرا ، وتُبقى له أثرا ، وتجعل سيرته شمسا لا يخفيها سحاب ، ولا يطمسها حجاب ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

من أمثلة أولئك الثابتين على مبادئهم وعقائدهم أبو ذر الغفارى رضى الله عنه ، فهو رجل فقير قليل ، يقبل وحده إلى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، من مكان بعيد ، فيسلم بين يديه بلا تردد ، والكفر شامخُ البنيان متطاول الأركان .

وينصحه الرسول بأن يعود إلى قومه ، ويبشر بالإسلام سرا بينهم ، حتى يأتى أوان الإعلان ، فيأبى أبو ذر أن يكتم نوراً أشرق فى قلبه ، بل يصرخ بكلمة التوحيد ودعاء السماء بين شياطين الوثنية وعمالقة الإشراك ، فيتألبون عليه يضربونه ويعذبونه ، فلا يفتنه ذلك عن دينه ، بل يعاود الهتافَ بكلمة الإيمان ، فيعاوده التنكيل والعذاب ، فيرضى كأنه يسقى الرحيق من الشراب .

ثم يعود أبو ذر إلى قبيلته غفار ، فيظل يدعو ويرشد ، حتى يسلم بسببه نصفُها ، ويسعى النصف الآخر ليسلم على يدى الرسول ، ويظل أبو ذر مسلما عاملا ، ومجاهدا ناصحا لله ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم ، حتى يشهد عهد عثمان بن عفان رضوان الله عليه ، فيرى أبو ذر المال وقد أخذ يتدفق فى

جيوب الناس ، والترف وقد بدأ يدب فيهم دبيب الداء فى الأعضاء ، والحرص على الشهوات وقد أخذ يغالب الحرص على الشهادة فى المواقف والغزوات ، فهتف بدعوته التكافلية الإسلامية ، التى تحارب كنز المال ، ومنع حقه عن الفقراء والمحتاجين وأخذ يلح فى دعوته ويبالغ فيها .

وجعل يردد فى المجامع والمحافل قول ربه عز من قائل : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ[1] » .

وظل يدعو إلى فكرته الجريئة الحازمة بين عنت المعارضين ، وتعويق المجادلين ، وإيقاع المغرضين ، حتى سعى به السعاة إلى عثمان ، فأمر بإخراجه إلى قرية « الربذة » على مسافة من المدينة لتنقطع صلته بالناس ، وأصدر عثمان أمراً بألا يتبعه أو يشيعه أحد .

وتخوف الناس فأطاعوا ، ولكن على بن أبى طالب وأخاه وولديه وعمار ابن ياسر خرجوا يودعونه ، وأراد على أن يثبت فؤاده أبى ذر ، وأن يقوى عماده ، فقال له تلك النصيحة الداعية إلى الاعتزاز بالمبدأ ، والثبات على العقيدة ، والإخلاص لله تعالى :

« يا أبا ذر ، إنك غضبت لله فارجُ منْ غضبت له ، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فاترك فى أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عما منعوك ، وستعلم من الرابحُ غداً ، والأكثر حُسَّداً ، ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رَتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا . لا يؤنسنك إلا الحق ، ولا يوحشنك إلا الباطل ، فلو قبلت دنياهم لأحبُّوك ، ولو قرضت منها لأمنوك » ! .

وهناك فى قرية « الربذة » لاقى أبو ذر آلامَ العزلة والوحدة ، ومتاعب الفقر والحاجة ، وما زالت الأيام تلح عليه بكلكلها ، وهو لها مجاهد ، وعليها

---

(١) سورة التوبة آيتى ٣٤ ، ٣٥ .

صابر ، حتى أسلم روحه الطاهرة على قارعة الطريق العام ، دون أن يجد بجواره من أصفيائه أو أحبائه مَنْ يتولى أمره ، أو يهيء جدثه ، ودون أن يستطيع أهله القيامَ بتشييعه ودفنه ، حتى مر عليهم جماعة فيهم عبد الله بن مسعود ، وكانوا على سفر ، فغسلوه وكفنوه ودفنوه .

وخيّل للذين تزلزلت قواعدُ شحهم وكنزهم من دعوة أبى ذر الجريئة أن هذا هوانٌ له ، ينال من شخصيته أو مكانته عند الله أو عند الناس .

ولكن طاشت أحلامهم ، فأبو ذر هو الذى قال فيه سيد الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم : « ما أظلت الغبراء ، ولا أقلت الخضراء ، أصدق لهجة ، ولا أوفى من أبى ذر » .

وقال فيه أيضا : « إنه يسعى وحده ، ويموت وحده ، ويُبعث وحده » ! .

***

لقد تختلف قليلا أو كثيرا مع أبى ذر فى فكرته أو طريقته ، وقد تقول : لو أنه طامن من غُلوائه هنا ، أو خفف من حدته هناك ، ولكنك لا تستطيع أبدا أن تقول إنه كان غير ثابت على مبدئه ، أو غير مستمسك بعقيدته ورأيه ، فإنه يعتقد هذا الرأى ، ويبشر به ويلح فيه ، ويختلف معه فى الرأى هذا ، ويعارضه ذاك ، وينتقده ذلك ، ولكن أبا ذر يمضى على طريقته ، لا يلتوى ولا يتراجع ، ولا يتناقض مع نفسه فيما بين تفكيره وواقعه ، فإذا كان قد نادى بمحاربة الكنز ، ومقاومة الكانزين ، فقد عاش لا يملك سَبَدًا ولا لَبدًا ، ولا يطوى من متاع الدنيا قليلا ولا كثيرا ، حتى يقول عنه الإمام النووى : « كان زاهدا متقللا من الدنيا ، وكان مذهبه أنه يحرم على الإنسان ادخار مازاد على حاجته ، وكان قوالا بالحق » .

وهكذا مضى أبو ذر إلى ربه ، بعد أن خلد فى التاريخ مثلا حيا من أمثلة

المقاومة للقارونية الكانزة التى تجمع وتكنز وتشح ، وسيمر بالدنيا جبارون وعيارون ومتسيطرون ، وسيكسبون ويكسبون ، ويحتالون لتخليد ذكراهم بما يحتالون ، ثم يرحلون ، فتسحقهم أقدام الإهمال والنسيان ، لأن عظمتهم الكاذبة قامت على الظلم والطغيان ، والاستبداد الأثيم بحقوق الإنسان .

ثم تبقى ذكرى الهداة الفقراء ، عاطرة باهرة فى سائر الأوقات والأرجاء ، وقل سلام على المؤمنين الموقنين ، الصادقين المخلصين ، الذين يقولون ويعملون ، وبالحق ينطقون ، وعلى مبادئهم يثبتون ، «وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» .

بطولة ثائبة
رابعة العدوية

رابعة العدوية !.. ياله من اسم شغل أذهانَ الباحثين والصوفيين والمحبين !..
وياله من اسم تحيط به غلائلٌ من الهيبة والإبهام والغموض ! .. وياله من
اسم اختلف الناس فى أمر صاحبته ، فرفعها بعضهم إلى درجة « عليا » ، ونزل
بها آخرون إلى دركة « سفلى » ، وقد يكون الإسراف عند هؤلاء وهؤلاء ..
وما أكثر الاختلاف حول رابعة وحياتها وتاريخها ! .

ما يكاد اسم رابعة يتردد على الأفواه حتى تتردد تلك الأبيات منسوبة
إليها تخاطب ربها عز وجل :

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنام غِضابُ
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صحَّ منك الود فالكل هينٌ ... وكلُّ الذى فوق التراب تراب

ويعتقد الناس أن هذه الأبيات من شعر رابعة ، مع أنها من شعر أبى فراس
الحمدانى الشاعر المشهور ، من قصيدة يعاتب فيها ابن عمه سيف الدولة الحمدانى ،
ومطلعها قوله :

أما لجميلٍ عندكن ثواب ... ولا لمسىء عندكن متابُ ؟

والناس يقولون إن والد رابعة يسمى « إسماعيل » ، وهم بهذا يخلطون بين
رابعة العدوية ورابعة الشامية ، فالأخيرة هى بنت إسماعيل لا الأولى ، وبعض
الكاتبين عن رابعة العدوية ينسب إليها العبارة التالية : « ما سمعت الأذان
إلا ذكرت منادى يوم القيامة ، وما رأيت الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ،
وما رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر » . ولكن الشعرانى فى كتابه « طبقات

الصوفيه » ينص على أن هذه العبارة لرابعة بنت إسماعيل الشامية ، وليست لرابعة العدوية !.

وهكذا نرى الكثير من الاختلاف أو الاضطراب فى الحديث عن رابعة العدوية ، ولعل الغموض الذى صحب حياتها نفسها كان سببا فى هذا الغموض الذى يكتنف الحديث عنها والترجمة لها فى كتب السابقين واللاحقين .

❀ ❀ ❀

ولقد شغلت رابعة العدوية كثيراً من الكتاب والباحثين ، فتحدثوا عنها ، وترجموا لها ، وألفوا فيها الكتب .. كتب عنها فى اللغات الأجنبية أمثالُ ما سينيون ، ونيكلسون ، ومارجريت سميث .

وكتب عنها فى العربية فريد الدين العطار ، وعبد الرحمن بدوى ، ووداد سكاكينى ، وطه عبد الباقى سرور ، ومحمد عطية خميس ، وغيرهم ، كما جاءت عنها أخبارٌ متناثرة فى كثير من كتب الأدب ، والأخلاق ، والتصوف ، والتاريخ . وقد وصفها الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » بأنها من نساك البصرة وزهادها[1] . كما ذكرها فى كتابه « الحيوان » أكثر من مرة ؛ ويروى عنها مثلا الخبر التالى :

قيل لرابعة القيسية : لو أذنتِ لنا كلمنا قومك فجمعوا لك ثمنَ خادم ، وكان لك فى ذلك مرفق ، وكفتك الخدمة ، وتفرغت للعبادة !.

فقالت . والله ، إنى لاستحى أن أسأل الدنيا ممن يملك الدنيا ، فكيف أسأل الدنيا مَنْ لا يملكها[2] ؟.

« ورابعة » هذه تسمى رابعة القيسية العدوية البصرية ، وسُميت بالقيسية لأنها من بطن من بطون قبيلة قيس ، وسميت بالعدوية لأن أسرتها من بنى عدوة ،

---

(١) انظر الجزء الأول ، ص ١١٦ .

(٢) الجزء الخامس ، ص ٥٨٩ . تقول إنى أستحى أن أسأل الله فكيف أسأل الناس ؟

وقيل لأنها كانت تشتغل « بتعدية » الناس فى قاربها ، وكلمة « العدوية » مختصرة من كلمة « المعداوية » .

ولا أميل إلى هذا الرأى بدليل أن هناك امرأة بصرية عابدة ثقة تُلَقَّبُ أيضاً بالعدوية ، ولم تكن مشتغلة بهذه الوظيفة ، وهذه المرأة هى « معاذة العدوية » ، وهى أم الصهباء معاذة بنت عبد الله العدوية البصرية ، زوجة « صلة ابن أشيم » الذى كان من نساك البصرة وزهادها أيضا ، وقد روت معاذة عن عائشة وعلى وهشام بن عامر ، وروى عنها أبو قلابة وقتادة وأيوب وعاصم الأحول ، وكانت من العابدات القانتات الصالحات ، وقد ذكرها كثير من المؤرخين . .

وسميت رابعة العدوية بالبصرية ، لأنها ولدت فى البصرة حوالى سنة مائة من الهجرة ، وعاشت فيها ردحا من الزمن .

وكان أبواها فقيرين ، يعيشان فى كوخ بطرف من أطراف مدينة البصرة العراقية التى كانت لها يومئذ شهرة فائقة فى العلم والأدب ، كما كانت لها شهرة فائقة أيضا فى اللهو والترف والغناء ، وكان الناس يسمون هذا الكوخ « كوخ العابد » وذلك لتقوى الوالد وإيمانه ، وإنه لمن العجيب أن تجد فى البصرة هذا التقى الظاهر بجوار اللهو السافر ، ولكن لا عَجَبَ ، فقد كانت البصرة تموج بتيارات متضاربة . فتيارٌ يأتيها من الجزيرة يدعوها إلى الهدى والتُّقَى والصلاح ، وتيار يأتيها من فارس ، يحرضها على التمتع واللهو والطرب ، وتيار من بينهما يحاول أن يقرب بين هذا وذاك ، ولكن هيهات ! .

وكان لرابعة العدوية ثلاث أخوات بنات سبقنها إلى الحياة ، وجاءت هى بعد الثلاث ، وأبواها يشكوان كَلَبَ الفقر وشدة الحياة ، فسمياها رابعة ، لأنها كانت الرابعة فى الميلاد .

وقد حزن أبوها لمجيئها وهو فى هذا الفقر المدقع ، ولكنه — كما قيل — رأى النبي صلوات الله وسلامه عليه فى المنام ، وسمعه يقول له : « لا تحزن ،

فهذه الوليدة سيدة جليلة ، وإن سبعين من أمتى ليرجون شفاعتها » . وأمره النبي فى المنام — كما تقول الرواية — بالتوجه إلى عيسى زادان والى البصرة ، وأمره أن يخبره ببعض شئونه الخاصة المستورة ، ثم يطلب منه مالا ، وفعل الوالد ، وعَجب عيسى ، واحتفل بالوالد ، وأعطاه أربعمائة دينار !.

* * *

وكانت رابعة منذ صغرها فتاة لبيبة ذكية عاقلة ، متدينة متعبدة متهجدة ، وكانت كثيرةَ الهم والحزن ، طويلة التفكير والشرود ، وكانت منطوية على نفسها ، عازفة عن الحياة ، قليلةَ الكلام .

وكانت تخاف أكل الحرام ، وقالت لأبيها : « يا أبت ، لستُ أجعلك فى حلٍّ من حرام تطعمنيه » .

فقال لها متعجباً ومختبراً : « أرأيت يا رابعة إن لم نجد إلا حراما ؟ ! » .

فأجابته : نصبر يا أبى فى الدنيا على الجوع ، خير من أن نصبر على النار» !

ولقد عنيت رابعة من صغرها بحفظ القرآن الكريم وترتيله ، وكلما حفظت سورة من سوره أخذت تكررها وتعيدها فى ترتيل وتجويد ، مع الخشوع وتدفق الدموع .

وكان وجود أبيها إلى جوارها يمكنها من هذا العكوف الكريم على القرآن المجيد : حفظاً وتلاوة وتفهما ، إذ كان الوالد يكفيها شئونَ الحياة ، ويهيء لها ضروريات العيش ، ولكن الأقدارَ العليمةَ الحكيمة لم تتركها فى هذه الحياة الهادئة ، فمات أبوها وهى صبية ناشئة ، ثم لحقت أمُّـها بأبيها .

وبقيت رابعةُ يتيمةً لطيمة مع أخواتها البنات الثلاث ، ولم يترك الوالدان لبناتهما من أسباب الحياة ووسائل العيش سوى قاربٍ ينقل الناسَ فى نهر دجلة من شاطىء إلى شاطىء ، مقابل أجر زهيد .

وخرجت رابعة من هدوئها وراحتها لتستقبل الحياة ، وتبدأ الكفاح من

أجل القوت .. خرجت لتشتغل فى القارب الموروث ، حتى تستطيع أن تطعم أخواتها الثلاث ، وتطعم نفسها معهن .

وكانت تقضى نهارها كله فى العمل ، ثم تعود مع المساء إلى البيت مكدودةً منهوكة متعبة ، فلا يهوّن عليها شىء ، ولا يسرى عنها التعب سوى الغناء ، وترديد الألحان التى كانت تنبثق من فؤادها وروحها وأعماق نفسها ، والتى ربما رددتها أيضاً وهى تعمل فى القارب خلال النهار ..

وذات ليلة رأت رابعة فى نومها رؤيا ، ثم عادت فى ليلة أخرى فرأتها ، ثم تكررت الرؤيا .

شاهدت نوراً ساطعاً يشمل الأفق ، وأقبل هذا النور عليها فأحاط بها ، وغمر جسمها وحسها ونفسها ، ودخل إلى فؤادها وروحها ، حتى سبحت رابعة فى أمواج ذلك النور ، وحتى اغتسلت بهذا النور .

وتحيرت رابعة ، وأخذت تفكر فى الرؤيا أثناء اليقظة ، وفى سبحة من سبحات روحها سمعت هاتفاً ينشد الأبياتَ التاليـــة فى توقيع أخاذ ، وتلحين رائع :

أحسنُ من قينة ومزمارِ	فى غَسقِ الليل نفحةُ القارى
يا حُســـنه والإله يسمعه	بطيبِ صوت ، ودمعه جارى
وخـــدُّه فى التراب منعفر	وقلبـــه فى محبـــةِ البارى
يقول : يا سيدى ، ويا سَندى	شغلنى عنك ثقلُ أوزارى !

ولم تر رابعة من ينشد ، ولكنها تأثرت والتاعت ، ووعت اللحن عن منشده فيما يقال ، وجعلت تكرره ، وتفكر فى غنائها السابق وألحانها المعهودة لها ، ثم تفكر فيما يدعوها الهاتف إليه ..

ثم رأت فيما قيل بعضَ الملائكة فى نومها وهى تردد الأبيات السابقة ، وتدعوها إلى محبة ربها والإقبال عليه ، فتركت رابعة غناءها وألحانها ، وأقبلت على عبادة ربها وقراءة القرآن وبخاصة فى الليل .

* * *

وعلى الرغم من عبادتها وتلاوتها وتهجدها فى أثناء الليل لم تنقطع — فيما يروى — عن الغناء والنشيد، ولكن شتان بين غناء الأمس وغناء اليوم، وشتان بين ألحان الماضى وألحان الحاضر !..

لقد كانت بالأمس تغنى كغناء الناس، وتنشد كما ينشد العامة من البشر.. أما اليوم فإنها تغنى غناء علويا، وتنشد نشيداً روحياً دينيا، قد تكون ألفاظه كألفاظ البشر، وصوره البيانية كصور البيان عند البشر، وقد يظن الناس بها حين يسمعونها الظنون، وقد يقولون : إنها تتغنى بحبيب بشرى تهواه، أو إنسان تهيم به، ولكنها كانت تردد ألحانَ الإيمان، وتنشد أناشيدَ الحب الإلهى السامى، وغفل الكثيرون عن هذا السمو الخفى المستور، ولم يعرف هذا السرَّ منها إلا رجلٌ له شهرة فى التصوف، وصيت فى الزهد، وهو « معروف الكرخى ».

وحسب رابعة أن يشهد لها معروفُ الكرخى، فهو أبو محفوظ معروف ابن فيروز — أو « ابن على » — الكرخى، من أجلاء الصوفية، والمذكورين بالورع والفتوة، وكان أستاذَ سرى السقطى.

وكان من دعائه : « اللهم إن نواصِيَنا بيدك، لم تملكنا منها شيئاً، فإذا فعلت ذلك بنا، فكن أنت ولينا، واهدنا إلى سواء السبيل ».

وكان يقول : « ما أكثر الصالحين ! وما أقل الصادقين فى الصالحين » !. ويقول : « توكل على الله حتى يكون هو معلمك ومؤنسك وموضع شكواك ؛ فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك ».

ويقول : « طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب.. نوع من الغرور، وارتجاء رحمة مَنْ لا يطاع جهل وحمق »...

***

وعادت الأيام إلى رابعة تختبرها وتبتليها وتمحصها. فقد حدثت مجاعة وقحط وجفاف فى البصرة على عهدها، وكانت المجاعة فظيعةً وجيعة مزلزلة مشتتة،

فتشردت رابعة فى الأرض ، وتشتتت أخواتها ، فكل واحدة منهن ذهبت إلى جهة من الأرض .

وقست الأيام على رابعة وعلى أخواتها قسوةً شديدة ، فلم تلتق رابعة بواحدة منهن بعد ذلك أبداً . . ولم يسعفنا التاريخ بتفاصيل كافية وافية لتلك النكبة السوداء .

ولم تكتف الأيام بما صبت على رابعة من بلايا ، بل سلطت عليها لصاً أثيما زنيما ، تربص لها حتى وجدها مشردة منفردة ، فأخذها مدعياً رِقها ، وباعها إلى احد التجار أمةً رقيقة ، بثمن بخس دراهمَ معدودة ، قيل إنها ستة دراهم ! .

وأخذها التاجر الذى اشتراها إلى بيته ، وأذاقها طعمَ البلاء ، وسامها سوء العذاب ، ولكنها صبرت وصابرت ، وظلت تتعبد وتتهجد ، وتدعو ربها وتناجيه ، كأن تقول :

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة	وأنا المشوقة فى المحبة رابعه
كأس المسرة والنعيم يديرها	ساقى المدام على المدى متتابعه
فإذا نظرت فلا أرى إلا له	وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
يا عاذلى ، إنى أحب جماله	تالله ما أذنى لعذلك سامعه
كم بت من حرقى وفرط تعلقى	أجرى عيوناً من عيونى الدامعه
لا عبرتى ترقى ، ولا وصل له	يبقى ، ولا عينى القريحة هاجعه !

* * *

وذات يوم ذهبت رابعة إلى السوق لتقضى لسيدها حاجة ، فأراد ذئب بشرى الاعتداء عليها ، ففرت منه فسقطت ، فكسرت ذراعها ، ولكنها احتملت وواصلت فرارها ، حتى بلغت البيت وهى راضية بما وقع لها من كسر ، ما دامت قد سلمت لها كرامتها وعفتها ، وظلت تناجى ربها تطلب رضاه ، ذاكرة أنه إذا رضى عنها فكل شىء سهل ميسور .

وكأنها كانت فى ذلك تتشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما ذهب إلى الطائف يعرض الإسلام على « ثقيف » ، ويدعوها إلى الإسلام ، فردوه رداً قبيحاً ، وأغلظوا له الجواب ، وحرضوا عليه الغلمان والصبيان ، يرمونه بالحصى والحجارة ، حتى سالت الدماء من رأسه وقدميه ، فعاد الرسول حزيناً وناجى ربه فقال :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يارب العالمين ؛ أنت أرحم الراحمين ، وأنت رب المستضعفين ، وأنت ربى . . إلى من تكلنى ؟ . إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ . إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك ، أو أن ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » !

واستغرقت رابعة فى الدعاء والمناجاة ، فيقال : إنها سمعت صوتا يقول لها : « لا تحزنى ؛ ففى يوم الحساب يتطلع المقربون فى السماء إليك ، ويحسدونك على ما تكونين فيه » ! .

وذات ليلة رآها التاجر الذى يملكها وهى تتعبد فى خشوع وإخلاص طالبة من الله أن ينقذها من ذلك التاجر القاسى لتتفرغ للعبادة ، ويقال : إن التاجر رأى فوق رأسها مصباحا مضيئا غير معلق بشىء ، فدخلته الخشية والروعة ، وآمن بصلتها العميقة بالله ، فأعتقها وأطلق سراحها .

وتحررت رابعة من التاجر والعبودية ، وانطلقت فى رحاب الحياة ، وعاد الغموض يعلو تاريخها ، وأخذ الإبهام يحيط بها ، ورجع التاريخ يضن بالتفاصيل والتحديد ، وظلت رابعة تصارع الحياة ، يصيبها ما يصيبها من سرائها وضرائها ، ونعمائها وبأسائها ، وتوفيقها وعثراتها .

واضطرتها الشدة — كما قيل — إلى حياة المجون ، واحترفت حرفة العزف على الناى ، بل قيل إنها « اندفعت فى طريق الغواية إلى مدى بعيد . . »

ولكن بعض الباحثين يفند ذلك القول ، وينفيه بشدة ، وينكر أن رابعة قد تلطخت بالشهوات على هذه الصورة التى تقال :

ومهما يكن من أمر فنحن نعود فنرى رابعة وقد تابت ، وأدركتها التقوى البالغة ، واعتزلت الخلق ، وبنت لنفسها مصلى منفرداً ، وانقطعت للعبادة ، وقيل إنها كانت تقصد المساجد ، وتشهد مجالس الذكر .

* * *

وكانت رابعة العدوية رائعة الجمال ، ساحرة الحسن ، متفجرة الفتنة ، ومع ذلك لم تتزوج . ولقد كان عدم زواجها موضع تساؤل طويل لكثير من الباحثين ، وبعض هؤلاء يعيبها على عدم زواجها ، والبعض الآخر يعلل لهذا الامتناع عن الزواج ، ولكل وجهةٌ هو موليها .

وروى أن محمد بن سليمان الهاشمى كان من كبار الأغنياء ، فدخله ثمانون ألف درهم ، وقد عرض على رابعة الزواج ، ووعدها بأن يقدم لها هذا الدخل وأمثاله ، فرفضت وقالت : إنها لا تريد أن تنصرف عن ذكر الله طرفة عين .

ولقد سئلت عن رفضها الزواج فأجابت : هناك ثلاثة أشياء هى سبب الهم عندى ، فإذا وجد من يخلصنى منها تزوجت .

فقيل لها : وما هى ؟

قالت الأول : إذا مت أستطيع أن أتقدم بإيمانى طاهراً ، والثانى : إذا كنت سأعطى كتابى بيمينى يوم القيامة ، والثالث : إذا جاء يوم البعث ، وأُخذ أصحاب الميمنة إلى الجنة ، وأصحابُ المشأمة إلى النار ، فمن أى الفريقين أكون ؟ .

فقيل لها : علم ذلك عند الله .

فقالت : إذا كان الأمر كذلك ، وأنا فى قلق من هذه الأشياء ، فكيف أحتاج إلى الزواج أو أتفرغ له ؟ .

* * *

والناظر فيما نُقلَ عن رابعة العدوية من كلمات ونَجْوَيَات يرى أنها كانت تبعث مناجياتها من قلب مكلوم بالهوى الإلهى ، وكبدٍ محترقةٍ بنيران الشوق إلى رضوان الله عز وجل

ولذلك نتأثر كثيرا بهذه الكلمات التى كانت تقولها ، ويطول وقوفنا عندها ، متأملين فيها متدبرين لها ، سواء أكانت هذه الكلمات نثراً أم شعرا ، ولو أننا تتبعنا كل ما نقلته المصادر المختلفة من أقوال « رابعة » ، وأشعارها ، لتكوّن عندنا مقدارٌ ضخم يصلح أن يكون زاداً طيبا للذين يريدون أن يوثقوا صلتهم بربهم عن طريق الدعاء والمناجاة .

ولكننا هنا نستعرض لمحات من سيرة رابعة ، ونقيّد خطرات أو خلاصات لمطالعة حياتها وسيرتها فى المصادر المختلفة ، فحسبنا إذن أن نورد طرفا من هذه الأقوال :

فمن نجوياتها النثرية قولها تخاطب ربها فى أثناء الليل :

« إلهى ، أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغَلَّقَت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك » .

وقولها تناجيه عند الفجر :

« إلهى ، هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى أقَبِلْتَ منى ليلتى فأهنأ ، أم رددتها على فأُعزّى ؟ فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى ، وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه ، لما وقع فى قلبى من محبتك » . .

وقولها : « اللهم إنى أعوذ بك من كل ما كان يشغلنى عنك ، ومن كل حائل يحول بينى وبينك » .

وقولها : « إلهى ، ما أصغيت إلى صوت حيوان ، ولا حفيف شجر ،

ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنعم ظل ، ولا دوى ريح ، ولا قعقعة رعد ، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على أنه ليس كمثلك شيء » .

وقولها : « سيدى ، بك تقرب المتقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات . أنت الذى سجد لك سواد الليل ؛ وضوء النهار ، والفلك الدوار ، والبحر الزخّار ، والقمر النوّار ، والنجم الزهار ، وكل شيء عندك بمقدار ، لأنك الله العلِيُّ القهار » .

ولما فرت من الذئب الذى أراد البطش بها ، وانكسرت ذراعها ، كانت تناجى ربها ، وتقول :

« رباه .. قد انكسرت ذراعى ، وأنا أعانى الألمَ واليتم ! وسوف أتحمل كلَّ شيء وأصبر عليه ، فهل أنت راضٍ عنى يا سيدى ؟ إلهى .. هذا ما أتوق إلى معرفته » .

وتقول فى أثناء قيامها الليل :

« قد نامت العيون ، وغفل الغافلون ، وبقيت رابعة الخاطئة بين يديك ، فلعلك تنظر إليها نظرة تمنعها النوم عن خدمتك ، وعزتك وجلالك لا أنام عن خدمتك فى ليل ولا نهار إلا غَلَبَةً حتى ألقاك » !

فإذا غلبها النوم من الإرهاق واستيقظت قامت فزعة مذعورة تقول : « يا نفس كم تنامين ، وإلى كم تقومين ؟ .. يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور » ! .

* * *

ومن نجوياتها الشعرية قولها :

يا سرورى ، ومنيتى ، وعمادى وأنيسى ، وعُدّتى ، ومرادى
أنت روحُ الفؤاد ، أنت رجائى أنت لى مُؤنسٌ ، وشوقك زادى
أنت لولاك ياحياتى وأنسى ما تشتّتُّ فى فسيح البلاد

كم بدت منه ، وكم لك عندى   من عطاء ، ونعمة ، وأيادى
حبك الآن بُغيتى ، ونعيمى   وجلاء لعين قلبى الصادى
ليس لى عنك ما حييت بَرَاحٌ   أنت منى ممكن فى السواد
إن تكن راضياً علىَّ فإنى   يامُنى القلب قد بدا إسعادى

وقولها تخاطب ربها :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى   وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسمُ منى للجليس مؤانس   وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقولها أيضاً فى المناجاة :

أحبكَ حبَّين : حب الهوى   وحبًّا لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حبُّ الهوى   فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنتَ أهلٌ له   فكشفُك للحجب حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى   ولكن لك الحمدُ فى ذا وذاكا !

وقولها أيضاً :

وزادى قليلٌ ما أراه مبلغى   أللزاد أبكى ، أم لطول مسافتى ؟
أتُحرقنى بالنار يا غاية المنى   فأين رجائى فيك ؟ أين مخافتى ؟

ومن شعرها قولها :

راحتى يا إخوتى فى خلوتى   وحبيبى دائما فى حضرتى
لم أجد لى عن هواه عِوَضاً   وهواه فى البرايا محنتى
إن أَمُتْ وجداً وما ثَمَّ رضا   وَاعَنائى فى الورى ، واشقوَتى !
يا طبيب القلب ، يا كلَّ المنى   جدْ بوصل منك يشفى مهجتى
يا سرورى وحياتى دائما   نشأتى منك ، وأيضاً نشوتى
قد هجرت الخلقَ جمعا .. أرتجى   منك وصلا هل أُقْضِى منيتى ؟

* * *

وعاشت رابعة حتى بلغت الثمانين ، بعد أن لقيت من الحياة ضروباً

وأشكالا وألوانا ، وبعد أن ذاقت حلوَ الدنيا ومرها ، ولم تفتها العبادة الكثيرة حتى فى شيخوختها ، وكانت تضع أكفانها أمام نظرها دائما ، لتتذكر الموت باستمرار ، وكلما ذكرته ارتعدت ، وكانت تكثر من البكاء ؛ وكانت « عبدة بنت أبى شوال » تخدم رابعة فى أخريات أيامها ، فقالت لها رابعة : « إذا متُّ فلا تؤذنى بموتى أحداً ، ولُفِّينى فى جُبَّتِى » !

وكذلك كان . . .

ومضت رابعة إلى ربها راضية مرضية .

لحقت بالرفيق الأعلى سنة ١٨٠ هـ بعد هذه الحياة الطويلة العريضة ، المليئة بالعظات والعبر لأولى الألباب وأولى الأبصار ، فسلام عليها فى الصالحين الأوفياء !

بطولة سيد الشهداء

الحسين بن على ! ... أى جلال يبدو للإنسان فيبهره حينما يسمع أو تردد شفتاه ذلك الاسم الكريم؟ ... أى صفحات من التاريخ تلمع كأنها قبس من نور الله العلى الكبير؟ وأى ذكريات تثور من أعماق الماضى فكأنها ماثلة أمام البصائر والأبصار، تحدُث لأول مرة فى الحياة؟ وأى صور سماوية متلاحقة تتعاقب لتتألف منها سيرةُ ذلك البطل العظيم، والشهيد المخلد، والمكافح الأمجد؟! ...

الحسين بن على .. ولد فاطمة، وحفيد محمد، وقرة عينه فى دنياه، وسيد الشهداء فى الدنيا، وسيد شباب الجنة يوم القيامة، وخير من وقف فى وجه الباطل الباغى المتجبر، مستهزئاً به، ثائراً عليه، متمرداً فى وجهه، مرغماً لأهليه على الإقرار بعظمة أهل اليقين والإيمان، وأفضل من تحدرت دماؤه الزكية فوق أرض كانت تئن وتتوجع من ضلال سائد، وظلم فاحش، وحق مضيع، لا يسمع له صوت، ولا يستجاب له نداء!.

نعم .. ما ذُكر الحسين إلا طافت بالمؤمن رهبة، وشملته رجفة، وأحاطت به من الجلال والإجلال موجة، وكأنما الإنسان حينذاك نملة صغيرة تحبو فى ظلال جبل رفيع أشمّ، فهى لا تحس بكيانها أمام جلاله، ولا بوجودها أمام عظمته.

وكذلك كان الحسين بن على على ممر الأيام، وسيبقى كذلك، يرى فيه الدارسون ما يشبه المثل الرمزى الأعلى الذى لا يبارى ولا يجارى، وحسب المتمعن فيه أن يشغل نفسه بمحاولة تقصيه، وأن يشرف ذاته بالانتساب إليه والاندماج فيه!.

كان الحسين بن على سيد الشهداء ، وتلك سمته المشهورة ، وصفته المذكورة ، ولكن الدارس لتاريخه حق دراسته يراه أيضاً من ألمع الخطباء فى عصره ، وحسبنا أن نسمع منه هذه العظة الوجيزة البليغة ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ، قال رضوان الله تبارك وتعالى عليه :

« لا تتكلف مالا تطيق ، ولا تتعرض لما لا تدرك ، ولا تعد بما لا تقدر عليه ، ولا تنفق إلا بقدر ما تستفيد ، ولا تطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت ، ولا تفرح إلا بما نلت من طاعة الله ، ولا تتناول إلا ما رأيت نفسك له أهلا » !.

وكان راضيا بقضاء الله وقدره ، لا يفزع ولا يجزع ، بل يصبر ويسترجع ، ولقد مات له ولد فلم يشهد الناس عليه كآبة ولا دمعا ، فقيل له فى ذلك ، فأجاب إجابة المؤمن الموقن : « إنّا أهل بيت نسأل الله فيعطينا ، فإذا أراد ما نكره فيما نحب رضينا » !.

وكان رجلا يحسن المناجاة والدعاء ، والابتهال والرجاء ، فقد التزم الكعبة ذات يوم ، ودعا بذلك الدعاء الوجيز البليغ : « إلهى ، نعّمتنى فلم تجدنى شاكرا ، وابتليتنى فلم تجدنى صابرا ، فلا أنتَ سلبتَ النعمةَ بترك الشكر ، ولا أنت أدمت الشدة بترك الصبر ، إلهى ، ما يكون من الكريم إلا الكرم » !؟..

وكان سيد الأجواد فى زمانه ، يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، ولا يخشى الحاجة ، ويجود جود من يعتقد أن الله يخلف عليه كل ما يبذل ، ويضاعفه له أضعافاً كثيرة ، فقد جاءه ذات يوم أعرابى يستجديه ، فوقف ببابه ثم أنشده هذين البيتين :

لم يبق عندى ما يباع ويشترى ... يكفيك ظاهر منظرى عن مخبرى
إلا بقية ماء وجه صنته ... عن أن يباع ، وأنت نعم المشترى!

فأعطاه الحسين مائتى دينار لعلها كانت كل ما يملك حينئذ ، وأجاب ذلك الأعرابى قائلا :

عاجلتنا فأتاك عاجلُ برِّنا ... نزراً ، ولو أمهلتنا لم نَقْتُر
فخذ القليل ، وكن كأنك لم تكن ... بِعتَ المصونَ ، وأننا لم نشتر !

ومما يدلك أيضاً على أن الحسين كان رجلا مسماحا معطاء ، لا يستكثر ما يتفضل به مهما كان عظيما ، شأنَ المطبوع على الجود المفطور على السماح والعطاء ، أنه دخلت عليه ذات يوم جارية من جواريه ، وفى يدها طاقة ريحان وزهر ، فقدمتها إلى سيدها ومولاها هدية متواضعة منها ، فسر الحسين بن على من صنيعها سرورا زائدا ، وأراد أن يكافئها ، فلم يملك نفسه أن قال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى ! .

فاغتاظت جارية أخرى له من ذلك الصنيع ، فقالت له : أتجيئك جارية يا سيدى بطاقة ريحان (لا قيمة لها) فتعتقها ؟ فأجاب الحسين رضوان الله عليه : كذلك أدبنا الله ، قال تبارك وتعالى : « وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا » وكان أحسن منها عتقها ! .

رضى الله عن الحسين رضوانا كبيرا ، وجزاه بمقدار جهاده واستشهاده ، ووفق أمة الإسلام للاهتداء بهدى جده عليه الصلاة والسلام .

البطولة
بين المثل الأعلى والواقع

المثل الأعلى هو الصورة السامية ، أو القدوة الحسنة التى يضعها الإنسان أمامه ليحتذيها وينهج نهجها ، محاولا بلوغها وتحقيقها ، حتى يصير فاضلا صالحا فى حسه ونفسه ، فيصبح من « الأماثل » ، وهم خيار الناس وأفاضلهم .

وعلماء الأخلاق والتربية يقولون إن المثل الأعلى للإنسان الحى العاقل الحساس لا يقف عند درجة معينة ، بل هو يوالى علوّه وارتفاعه ، فكلما قطع الإنسان مرحلة فى سبيل الوصول إلى أمله أو بغيته ، عاد مثله الأعلى فارتفع درجة أو درجات ، وحاجات من عاش لا تنقضى ، ورغباته لا تقف عند حد ، ولذلك قالوا : إن المثل الأعلى غاية لا تدرَك .

ويروون فى ذلك قصة قصيرة ، لعل الخيال قد لعب فيها دوره ، وهى أن فاتحا كبيراً اتسعت فتوحه فى الأرض حتى بهرت الناس ، وكان يتطلع إلى السماء ذات يوم ، فقيل له : إلى أى شىء تتطلع .

فأجاب : انظر كيف أستطيع فتح السماء بعد أن فتحت الأرض ؟ .

والشاعر العربى يقول :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادِها الأجسامُ !

***

هذا هو ميدان العلم مثلا . . لا يبلغ الإنسان فيه مرحلة أو مزيداً إلا يريد مرحلة أخرى ، أو مزيدا جديدا ، والعلم أمامه واسع فسيح ، كمحيط بلا ساحل ، فلا يزال الإنسان طالبا للعلم ، ولا يزال العلم أمامَه متزايداً متجددا : « ويخلق مالا تعلمون » .

ومن هنا جاء فى الحديث : « اطلب العلمَ من المهد إلى اللحد » .

وجاء فيه : « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب دنيا » .

وروى ابن قتيبة أنه جاء فى الأثر : « لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم (أى اكتفى من العلم) فقد بدأ يجهل » .

وهذا هو ميدان الكشف والاختراع يتزايد نطاقه كل يوم ، فالإنسان فيه قد تدرج من كشف العربة ، إلى السيارة ، إلى القطار ، إلى الطائرة ، إلى الغواصة ، إلى البارجة ، إلى المدمرة ، إلى الصاروخ ، ولم يقنع بذلك ، بل أخذ يفكر فى غزو الفضاء ، وفى الارتحال إلى القمر .

ومن يدرى ؟ لعله لو تحقق له ذلك لفكر فى شىء آخر بعده ، لأن طموح الإنسان لا يقف عند حد ، ومثله الأعلى أيضاً لا يقف عند مستوى معلوم . . .

ولا شك أن الكمال المطلق لا يكون إلا لله وحده ، فهو المنزه عن النقص والحاجة ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « وَلِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ » ويقول أيضا : وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » . والمقصود بالمثل الأعلى هنا — والله أعلم بمراده — هو أن الله تعالى هو صاحب الصفة العليا الكاملة ، من الألوهية والوحدانية ، والخلق والقدرة ، والعلم والحكمة ، وأنه متصف بما لا شبيه له فيه ولا نظير ، وهذا هو الكمال المطلق الذى لا يبلغه إنسان ، ولا كائن من الكائنات سوى الله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » .

❋ ❋ ❋

والناظر فى تعاليم الإسلام يجد أنه يحرض الناس على أن يتطلعوا إلى الرفعة والتسامى ، والصلاح فى الأعمال والأقوال والأفكار ، وألا يقنعوا بالتافه أو السفساف من الأمور ، بل عليهم أن يطلبوا معالى الأمور ، ومكارم الأخلاق ، ومراتب الرفعة ، ومن هنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » .

وقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ولكن الإسلام مع هذا يعلم الناس أن المثل الأعلى قمة سامية مثالية لا يبلغها كل النـاس ، بل هم يسعون إليها ، فبعضهم يدنو منهـا ، وبعضهم يبتعد عنها ، « وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له » . ولذلك يضع الإسلام أمام أتباعه طائفة من المثل العليا لتكون لهم غاية كريمة بعيدة المرمى ، ثم يحرضهم على أن يتابعوا خطواتهم فى سبيل الوصول إليها ، والأخذ من ثمراتها ، فالله سبحانه وتعالى يقول على سبيل المثال : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

وتقوى الله حق التقوى مثل أعلى ليس من السهل أن يبلغه الإنسان ، فقد روى البخارى أن النبي قال : « حق تقاته أن يطاع فلا يُعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يُشكر فلا يكفر » .

وقال ابن عباس : « هو ألا يُعصى طرفة عين » .

وهذا مطلب سام عزيز ، ولذلك قال المفسرون : إنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يارسول الله ، من يقوى على هذا ؟ . وشق عليهم الأمر ، مع أنهم هم الصحابة السابقون المقربون القائمون بالحق المسارعون إلى ربهم فى إخلاص وصدق ، فأنزل الله تعالى قوله : « فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » . وبهذا كانت الآية الأولى رسماً للمثل الأعلى الذى يضعه المؤمن أمامه ليطمح إليه ويسعى نحوه ، وكانت الآية الأخرى رسماً للخطوات التى يقوم بها الإنسان محاولا فيها بلوغ هذا المثل ، فهو يبذل ما فى وسعه ، ويقدم ما فى استطاعته ، وبتكرار العمل والمحاولة تتوالى الخطواتُ نحو هذا المثل الأعلى .

❁ ❁ ❁

ويقول الله تعالى أيضاً : « وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ » . وحق الجهاد فى الله واجب جليل خطير ، لأن معناه كما يذكر المفسرون أن يصدق الإنسان فى جهاده لوجه ربه بالمال واللسان والنفس ، وفى جهاده للأهواء والشهوات ، وفى صبره على أداء جميع التكاليف والواجبات ، وهذه هى قمة الجهاد التام الكامل ،

ولابد للوصول إلى القمة من التدرج فى خطوات ودرجات يبلغ بها الإنسان هذه القمة » .

ولذلك نجد القرآن الكريم يقول فى موطن آخر : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » ، ومعنى هذا أن الذين يبدءون خطواتهم فى المجاهدة يفتح الله أمامهم أبواب السعى المشكور والعمل المبرور ، فَيُسْلِمهم طريقٌ إلى طريق ، وينتهى بهم ميدان إلى ميدان ، وإذا عملوا بما علموا هداهم الله إلى علم مالم يعلموا من قبل ، فيعملون بهذا العلم الجديد .

وهكذا دواليك ، يسيرون فى صبر ومصابرة ، والله مع الذين يحسنون العمل ويدومون عليه ، وهو ولى العاملين الصابرين . فحق الجهاد فى الله مثل أعلى ، ومتابعة الخطوات نحو هذا الجهاد المثالى واجب يلزم الشروع فيه والدوام عليه .

وإذا كان الله تعالى يقول : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » فإنه يقول : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ويقول رسوله : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » .

*   *   *

وفى تاريخنا العربى والإسلامى مواقف كثيرة تتجلى فيها المثل العليا التى يجب أن تكون نماذج سامية توضع أمام الشباب العرب المؤمنين ، لتشغل أفكارهم بالتدبر فيها ، وتشغل أبصارهم بالطموح نحوها والتطلع إليها ، وتشغل حواسهم وعزائمهم بالاقتراب منها والسير على طريقها ، ومن حق هؤلاء الشباب علينا أن نبسط أمامهم ما يمكن عرضه من هذه المثل العليا ، لينطلقوا فى ساحات العمل والكفاح شعلا متقدة تصهر نفسها لتمحصها ، وتضىء الطريق أمامها لتمضىَ على نوره ، وليمضىَ معها غيرها نحو غايات من المجد والرفعة والجلال ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

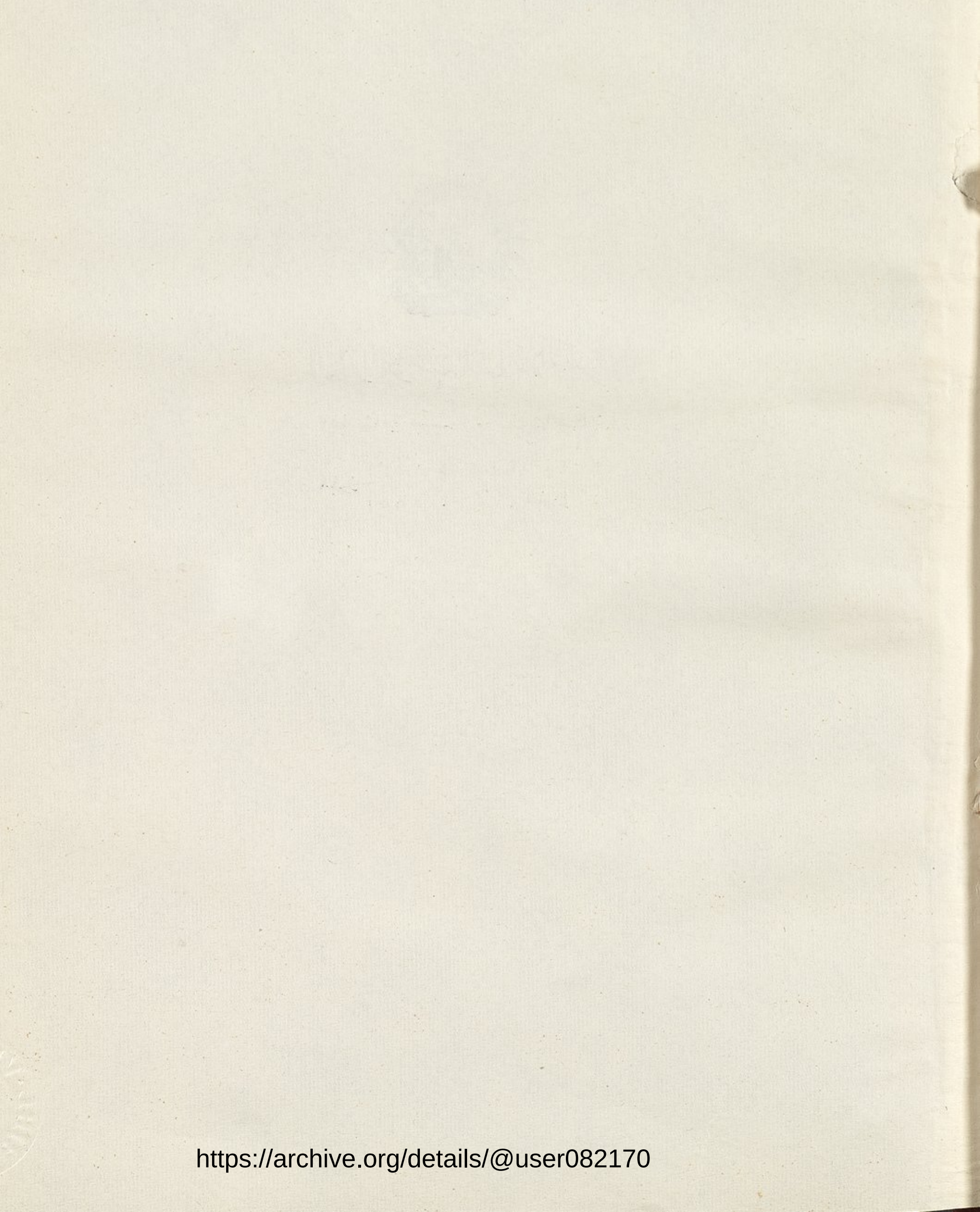
خاتمة

ونبلغ الآن من الطريق مرحلة قد يحسن الوقوف عندها ، ولا أقول يحسن الانتهاء بها ، فما زال الطريق ممتداً ، وما زال الباب عليه مفتوحا ، فإن أحاديث البطولة فى تاريخ أمتنا العريقة كثيرة غزيرة وافرة ، وكلما تطلب الإنسان منها المزيد أسعفته بما يريد

فلنقف اليوم عند هذه المرحلة ، ولنتدبر فى الخطوات التى خطوناها خلال المجموعة السابقة ، ومن يدرى ؟ : لعل الله الذى تتم بفضله وجلاله الصالحات ، يكتب لنا عودة إلى الاجتماع على طائفة أخرى من أحاديث البطولات والأبطال ، وعلى الله قصد السبيل .

* * *

فهرس

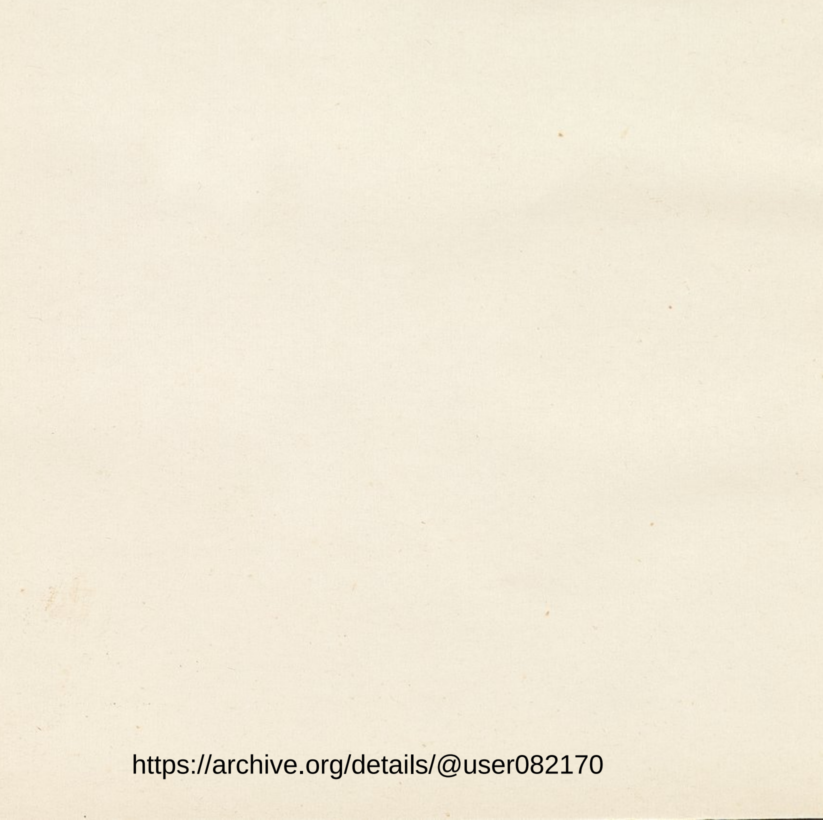




الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

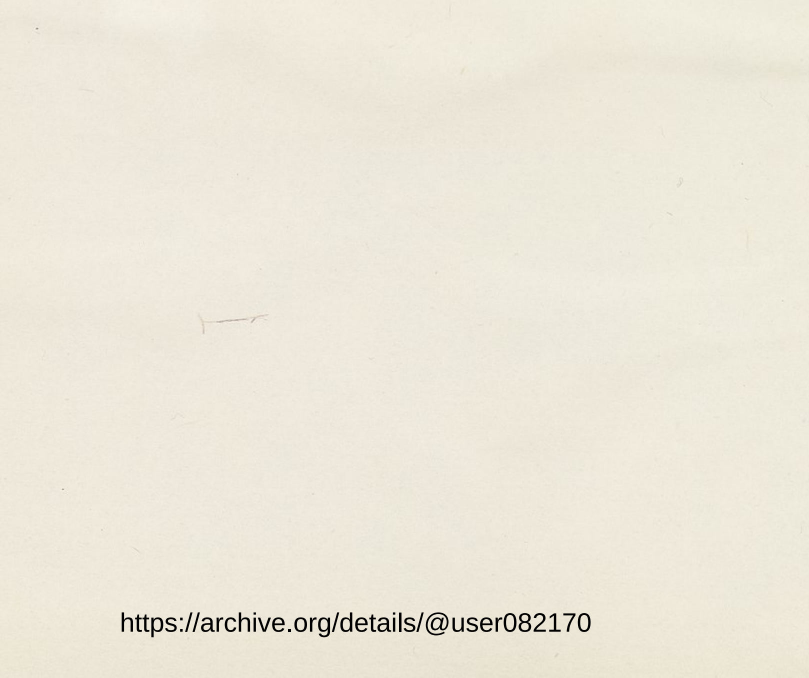


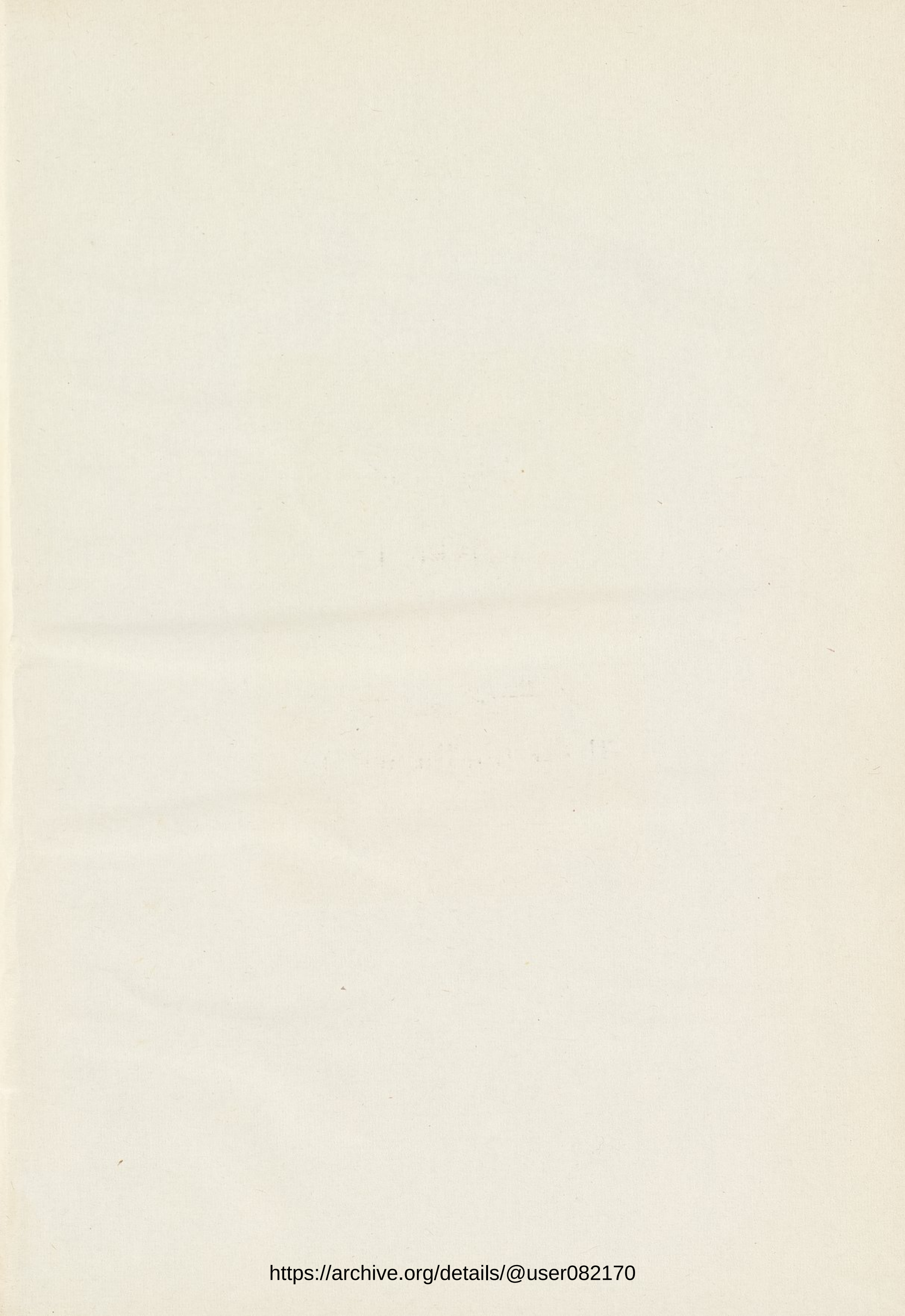
الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤ }

العــــدد ٤٣ الثمن ١٣ قرشا






Princeton University Library
32101 074331271